

كتاب المصداق

صلاح الدين الأيوبي

البطل الذي انتصر على الغرب

تأليف

محمد فريد أبو حميد

0197971



مكتبة الإسكندرية

Bibliotheca Alexandrina



سلسلة شهيرة

مصدر عن دار المصداق



# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »  
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٨٧ - ذو القعدة ١٣٧٧ - يونية ١٩٥٨

No. 87 — Juin 1958

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب  
( المتديان سابقا ) القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال - بوسنة مصر العمومية - مصر  
التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ( ١٢ عددا ) - مصر والسودان  
١٠٠ قرش صاغ - سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا  
أو لبنان - السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠  
قرشا صاغ - الأمريكتين ٥٥ دولار - في سائر  
أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغ

# كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع



# صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغريب

---

تأليف  
محمد فريد أبو عدي

طبعة مزداته بالخرائط والصور

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال





صلاح الدين الايوبي





## مقدمة

منذ حوالى ثلاثين سنة رأت لجنة التأليف والترجمة والنشر - جريا على سنتها في خدمة الثقافة القومية - أن تصدر سلسلة من الكتب بعنوان « سلسلة المعارف العامة » وعهدت الى بتأليف حلقة من حلقاتها

فاستعرضت الموضوعات لاختار اقربها الى نفسى ، واجدرها بتحقيق غرض اللجنة من اصدار تلك السلسلة ، فلم اجد خيرا من ذكرى صلاح الدين الايوبى .

وانه لطيب لى بمناسبة طبعه للمرة الثانية ، بعد هذه الحقبة الطويلة ، أن أقف حيناً لآلقى نظرة الى ماورائى ، لأتأمل تلك الايام التى مرت بنا ، وما كان فيها من آمال وآلام ، وما سببنا فيه خلالها من الأخلام ، حين كنا لا نجد لانفسنا تعلقة نرفه بها عنها ، الا أن ننتقل بها الى مسارح الرؤى فى الماضى ، او عوالم الرجاء فى المستقبل . ذلك لأن الحاضر كان يحيط بنا كأنه قطع الظلام ، ونحن فى قاع موجة هائلة اثارها أعصار الاستعمار المدمر ، ومن حولنا أمواج كالجبال - ظلمات بعضها فوق بعض من أخرج فيها يده لم يكدر يراها . كانت سبجاتنا

في أحلامنا تبعث إلينا بشعاع خافت من الأمل ، كأنه وميض  
نجم في ثنايا السحب المتراكمة

كنا نرى عالمنا العربي والاسلامى ، وقد تقاسمته قوى  
الاستعمار كما تتقاسم الثمر فرائسها ، فيكاد اليأس يستولى  
على نفوسنا ، لولا ما كنا نقوى به أنفسنا ، اذ نستعرض مامر  
بالامة العربية والاسلامية من محن طاحنة ، وكوارث فاذحة ،  
وكيف خرجت من ذلك كله وهى قوية سليمة ، بفضل ايمانها  
وثقتها بنفسها . فكنا نتمنى ...

كنا نتمنى أن يتمخض المستقبل يوما عن مثل ما تمخض به  
الماضى ، وأن ينبج من الأبطال المخلصين الاقوياء مثل أولئك  
الذين واجهوا المحن ، وخرجوا بالامة من غمارها ، وهى قوية  
سليمة

فاختيار موضوع صلاح الدين لم يكن سوى أثر من هذه  
الحالة النفسية التى كنا نتعل فيها بالآمال ، ونستلهم الاحلام،  
عسى الله أن يبعث من هذه الامة فى يوم من الايام مثل ذلك  
الرجل العظيم الذى ظهر فى الامة العربية والاسلامية منذ نيف  
وثمانية قرون ، فى عهد مظلم ملئ بالكوارث مثل عصرنا الذى  
كنا نعيش فيه . فقد جاء صلاح الدين فى وقت طغت فيه على  
الامة العربية والاسلامية موجة من موجات الاعتداء تشبه موجة  
الاستعمار التى كانت تعصف بنا . وكانت ظروف الامة العربية  
والاسلامية فى عهد صلاح الدين هى الظروف التى كنا نضيق  
بها ونحس الذلة والحنق منها . كانت طائفة من الملوك والامراء

تتنازع فيما بينها على السيادة ولا تتردد أن تمد يدها الى  
الاجنبى ليستعين به كل فرد منهم على تحقيق مطامعه  
الشخصية الصغيرة ، على حين كان الاجنبى لا يقصد الى شيء  
غير اذلال العرب والمسلمين جميعا

وكانت طائفة اخرى من الاعيان تبتز اموال الشعوب  
المطحونة ، كى تنفقها على حياة ترف دنىء يستل قوة الحيوية  
ولا يدع للمترف من همة الا التنافس على السيادة المزيفة .  
فكانوا وهم يحتلون مقاعد السيادة المزيفة لا يشعرون بمذلة  
اذا هم خضعوا تحت اقدام الاجنبى مادام يسمح لهم ان  
يدوسوا شعوبهم المسكينة ويمتصوا دماءها



كان هذا شأن الملوك والأمراء فى عهد صلاح الدين ، كما  
كان فى مطالع القرن العشرين ، على حين كان للشعوب فى الحالين  
شأن آخر . كانت الشعوب العربية والاسلامية دائما تبذل  
ما ابقى السادة المزيفون لهم من دماء و اموال وهم اسخياء ،  
فى سبيل الدفاع عن عروبتهن وعن اسلامهم . ولهذا كان من  
الطبيعى أن اختار موضوع صلاح الدين فى تلك الآونة ، وفى  
قرارة نفسى أمنية غامضة : أن تجود الأيام مرة أخرى بمن  
يثور على ذلك الحاضر الذى كنا نعيش فيه ويرد عنه الموجة  
المظلمة الثانية كما رد صلاح الدين تلك الموجة المظلمة  
الاولى !

وها هى ذى الاحلام والامانى تلتقى بالحقائق ، كأنها كيان



واحد بعد مرور هذه الحقبة بين طبع هذا الكتاب للمرة الاولى وطبعه للمرة الثانية ، وكان الزمان الذى يفصل بين الموقفين قد تضاعف أو انمحق

هذه هى الأمة العربية تنبض بالحياة وتهب من رقدتها ، وهذا هو ظل الاستعمار ينحسر عن أرضها فى موجة هائلة تشبه الموجة التى انحدر بها عليها . ثم هذا بطل بل ابطال ينهضون فى صفوف الأمة العربية — جمال وصحبه فى مصر والقوتلى وصحبه فى سوريا ، ليكتبوا فى التاريخ صفحة جديدة لا تقل روعة ولا مجدا عن الصفحة التى كتبها صلاح الدين من قبل

نقول ان التاريخ أعاد نفسه ! قد يكون هذا صحيحا اذا نحن نظرنا اليه من ناحية الجوهر وابعدنا عن الصورة حواشيها واغراضها ، فنحن اليوم حيال حركة جهاد حديثة تشبه فى جملتها حركة الجهاد القديمة . غير ان العصر الحاضر يختلف فى أوضاعه وفى مفهوماته عن القرن الثانى عشر الذى انجب صلاح الدين

كان الملوك والامراء عند ذلك يستطيعون أن يعملوا لانهم كانوا أصحاب القوة ومصدر السيادة . كانوا يستطيعون أن يعملوا للخير أو للشر على حد سواء . وكانوا يحققون اغراضهم مستعينين بالجنود المرتزقة أو المماليك . واذا كان الاخيار منهم يستندون الى تعضيد عواطف الأمة كما فعل صلاح الدين ، فان العصر لم يكن يعرف ان الشعوب هى

## مصدر السيادة والسلطان



من أجل هذا وجد صلاح الدين نفسه حيال ملوك وأمراء يحولون بينه وبين تحقيق ارادة الشعوب التي كانت تتوق الى الوحدة ، وتتوئب من أجل المشاركة في الجهاد . وكان هؤلاء الامراء لا يترددون في أى شيء حتى الخيانة للاسلام والعروبة ، اذا كان ذلك يحقق لهم المحافظة على مصالحهم الخاصة وسيادتهم . فلم يجد صلاح الدين بدا من أن يلجأ الى تحقيق الوحدة عن طريق السيف حتى يجمع الامة العربية والاسلامية كلها في صف واحد من أجل الجهاد . فبحد السيف وحد صلاح الدين سوريا ومصر ، وبحد السيف تمت على يديه الوحدة بين الشرق والغرب الاسلاميين . ولكن العصر الذي نعيش فيه اليوم يعترف اعترافا صريحا لا لبس فيه ، بأن الشعوب مصادر السلطان وان ارادة الشعوب هي مادة القانون الذي تسير عليه الدول . ومن أجل هذا كان توحيد مصر وسوريا وليد رغبة الشعبين ، ومن أجل هذا أيضا ستمضي الشعوب العربية جميعا في تحقيق وحدتها لانها لا تستطيع ان تتنازل عن تحقيق سيادتها وسلطانها

وانه ليحق لى ، كما يحق لابناء جيلى الذين شهدوا ما كانت عليه حال الامة العربية في مطالع هذا القرن العشرين ، والذين كانوا يرفهون عن مشاعرهم المكدودة باحلام الماضى ورؤى المستقبل ، يحق لهؤلاء ان يكونوا سعداء اذ كان من حظهم ان

يشهدوا الصورة ماثلة في الحقيقة بعد ان كانوا يلتمسون ايناسها  
ومواساتها في مسارح الخيال

**محمد فريد أبو حديد**

ابريل سنة ١٩٥٨





## الفصل الأول

مباحث تمهيدية

لتناريخ صلاح الدين وعصره



## دعوة الاسلام ونضاله مع الامم

قام دين الاسلام فى صحراء العرب ثم نما وزاد حتى شمل كل الجزيرة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجعل ينشر جناحيه كى يظل بهما ما يليه من امم الارض من قبل المشرق والمغرب

وقد وجد الاسلام من العرب عدة واستعدادا، فجعل سبلهم يتدفق على ما جاوره من البلاد ، فاجتاح فارس وهبط على ما يليه من بلاد الروم حتى اقام دولة فتية لم يشهد مثلها التاريخ الا قليلا ، فبلغت فى نحو تسعين سنة اتساعا لم تبلغه دولة الروم فى قرون طويلة . وكان من اسباب انتصار هذه الدولة الفتية تلك الحماسة الدينية العجيبة التى لم يذكر مثلها التاريخ لشعب آخر من الشعوب ، حماسة قائمة على عقيدة كالصخرة لا يدخل اليها شك ولا يضعف من مسورتها ظلم ، بل كانت عقيدة حرة ثابتة . فشهد العالم نوعا جديدا من انواع الدولة يقوم على الجهاد فى سبيل العقيدة الدينية ، فلا تقوى دولة من دول الارض على الوقوف فى وجهها . وكان ذلك اول عهد جديد طلع على العالم المعروف

وسارت دولة الاسلام بعد ذلك قدما فى سبيلها فهدأ تيار



الفتح بعد حين وجعلت أمورها تستقر وأخذت تلتمس المدنية من وجوها ، فنقلت ما نقلت عن دول سبقتها مثل فارس ومصر وأنشأت لنفسها فوق ذلك مدنية طريفة صبغتها بصبغتها . حتى اذا كان أواخر القرن السابع بعد الميلاد ( النصف الأخير من القرن الأول للهجرة ) صارت دولة الاسلام (دولة بنى أمية) هي دولة العالم الكبرى ، وكان الى جوارها في أوروبا دولة الروم الشرقية من قبل آسيا الصغرى

وكانت أوروبا في هذا الوقت قد طرأ عليها تغير كبير من حوادث ذات بال وقعت بها منذ أواخر القرن الخامس للميلاد - قبل الهجرة بنحو قرن ونصف - وذلك أن دولة الروم العظيمة الغربية بلغت شيخوختها وضعفت، وجعلت أمم من المتوحشين تغير عليها من سهوب الشرق المجاورة لبحر قزوين وما اليه ، فما زالت تلك القبائل الهمجية تصدعها حتى تصدعت وتفككت وسقطت وآلت رومة العظيمة عاصمة العالم الى يد الفاتحين من قبائل القوط . ومن ذلك الوقت ضاع أمر دولة الروم الغربية وتقسمت أرضها بين المغيرين فأخذت قبائل الفرنج ( الفرنك ) بلاد غالة ( فرنسا الحالية ) ، وهبط ( الوندال ) ثم قبائل القوط الغربية في اسبانيا حيث ظل حكمهم أكثر من قرنين الى أن أتى العرب فقاموا على أنقاض دولتهم هناك . ثم استقرت دولة القوط الشرقية في ايطاليا ، وبذلك صارت مدنية الدولة الرومانية الى تلك الايدي الحشنة فما لبثت أن ذهب روائها وأصبحت أثراً بعد عين

على أن العالم الغربى قد كسب شيئاً وان فقد مدنية الرومان ،  
وذلك أن الشعب الرومانى القديم كان قد بلغ مرتبة الشيخوخة  
والضعف وكان لابد له من الفناء فى نضال البقاء ، فلما غلبت  
عليه تلك القبائل المتوحشة واختلطت به دخلت فى دين المسيح  
وأدخلت على شيخوخة الشعب الرومانى فتوتها وخشونتها  
وبداوتها . فدخل دم الشباب من هذه القبائل الى الشعب القديم  
وعادت اليه قوة حيوية كبرى وبقيت المدنية القديمة محلا  
للتقديس ولو أنها كانت غير مفهومة ولا مدركة ، وكان الدين  
المسيحى الذى اشترك فيه الشعبان القديم والحديث علاقة متينة  
زالت بواسطتها الفوارق تدريجاً حتى اذا ما أتى القرن الثامن  
بعد الميلاد ( القرن الثانى للهجرة ) كانت عوامل الاختلاط قد  
أتت بنتائجها وأصبح الشعب القديم غير ظاهر وحده بل صار  
الناس خليطاً من الشعب القديم والشعوب الهمجية ،  
وبدأت كل جهة تمتاز عن الاخرى لهجة وعادات وطبائع بحسب  
السنة الطبيعية لاختلاف البيئات ولهجات القبائل المختلفة ،  
وبذلك وضع أساس أمم أوروبا الجديدة



عظمت بعد ذلك دولة العرب فى مدة العباسيين حتى صارت  
أعظم دولة فى العالم مجدا ومدنية وقوة ، ولكن انفصلت عنها  
أجزاء قامت منها دول فتية أخرى أكبرها دولة الامويين بالاندلس  
يحكمها أبناء عبد الرحمن الأموى الذى هرب من العباسيين الى  
الغرب ، وعبر البحر وكون دولة مستقلة فى شبه جزيرة الاندلس

ينافس بها أعداء أسرته العباسيين ، وعلى هذا كان للعالم المسيحي في القرن الثامن للميلاد جبهتان يتقابل فيهما بدول الاسلام :

١ - الجبهة الاولى الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها في القسطنطينية ، وهى تتأخم دولة العباسيين عند آسيا الصغرى

٢ - والجبهة الثانية حطام الدولة الرومانية الغربية التى استولى الهمج على أنحائها وكونوا فيها الدول الجديدة البدوية ، وكانت الدولة الاسلامية القريبة من تلك الجبهة دولة الاندلس

على أنه قد بدأت فى أوروبا فى القرن الثامن للميلاد حركة ترمى الى توحيد الدول المسيحية ، وإعادة انشاء دولة واحدة عظيمة شبيهة بدولة الروم الغربية القديمة

وكان قوام تلك الدولة الجديدة شعب الفرنج تقوده أسرة من نسل القائد الفرنجى شارل مارتل صاحب الانتصار على العرب فى وقعة « تور » سنة ٧٣٢ بعد الميلاد، وهو الذى تعدد أوروبا الغربية حاميا لها من سيل العرب الجارف الذى كان يهددها من الاندلس

بلغت تلك الدولة شأوا كبيرا فى أيام الملك شارلمان أو شارل الكبير حفيد شارل مارتل ، ويمكن أن تعتبر دولته إعادة لسيرة الدولة الرومانية القديمة مع فارق عظيم يجب ألا ينسى وهو أن تلك الدولة الجديدة كانت فى الواقع دولة فرنجية أى أن قوامها كان من الفرنج سلالة الهمج الذين اشتركوا فى هدم الدولة الرومانية الغربية منذ ثلاثة قرون ، فكانت دولة متسعة على رأسها حكومة واحدة ويحاول ملكها العظيم أن يجعلها شبيهة



بالدولة الجلييلة القديمة في نظامها وأن كان لا يستطيع أن يعيد  
ذلك النور الذي انطفأ على يد أجداده الغزاة الأوائل

فبعد قرون ثلاثة من سقوط رومة استقر العالم على حال  
جديدة ، وأصبح فيه دول ثلاث أو أربع ألا وهي دولة المسلمين  
ودولة الفرنجة ( الامبراطورية الغربية ) والدولة الرومانية  
الشرقية

نقول دول ثلاث أو أربع لأن دولة المسلمين في ذلك الوقت  
كانت كما قدمنا غير متحدة ، فقد انفصلت بعض أطرافها فكانت  
دولا مستقلة أكبرها دولة الاندلس ، ولهذا كانت دولة المسلمين  
في الواقع دولتين كبيرتين : دولة العباسيين المشاركة ، ودولة  
المغاربة بنى أمية بالاندلس



## علاقة الاسلام بأمم أوروبا منذ القرن التاسع

استقرت تلك الدول بعد ذلك الاضطراب الطويل الذي غير وجه العالم وصارت لها فيما بينها علاقات وروابط . وتبدلت وجهة ما بينها من العلاقة الى ما يكون عادة بين المتجاورين من علاقات معاملة ومنافسة ومنازعة ، ولعل من اكبر ما يسترعى النظر في حروب المسلمين مع من جاورهم ان لفظ الجهاد كان لا يزال مستعملا . فلا تزال نسمع ذلك الاسم ( الجهاد ) يعبر به المؤرخ الاسلامي عن حروب العباسيين أمثال هرون الرشيد والمعتصم مع الدولة الرومانية الشرقية ، وكذلك يتردد ذلك الاسم وهو الجهاد في وصف حروب عبد الرحمن الاوسط مع جيرانه ملوك الفرنج وأمراء القوط بجبال الاندلس

والحق أن ذلك اللفظ وهو الجهاد يجب أن يقصر على العصر الاول من غزوات المسلمين أيام كان القصد الاول من الحروب بث الدعوة الاسلامية في أنحاء الارض ، فقد كان المسلمون اذ ذاك أصحاب مبدأ جديد وفكرة يريدون أن تسود العالم ، فكان أول شيء في نظرهم ابلاغ الناس ما عندهم من الدعوة والعمل على أخذهم بها ولو كلفهم ذلك مهجهم . فما كانوا يعبأون

أبحاربون في صحارى قاحلة أم في وديان خصبة ، ولا يبالون  
أنالهم بأس البرد أم حر القيظ في سبيل ما يدعون اليه . وكان  
العدو بعد الانتصار يصير صاحبا ، له ما لهم وعليه ما عليهم  
إذا هو قبل دعوتهم

وما كان لهؤلاء المجاهدين الأولين أن يفرقوا بين جنس و جنس  
أو بين لون من الناس ولون ، بل انهم كانوا يغلبون العدو وهم  
يرون أنهم يؤدون له أكبر خدمة بإبلاغه الدعوة وتمهيد السبيل  
أمامه الى السعادة الاخرية . فكان شأنهم في ذلك شأن كل  
أصحاب الدعوات والمبادئ ، ولكن لقد كان للجهاد عصره ثم  
انقضت الروح التي كانت تدفع اليه . ثم دخلت دولة الاسلام  
في دور حياة مدنية وحلت في بلاد ذات مجد قديم وسارت في  
مواطىء اقدام الأمم الغابرة وأخذت بمدنياتها تدريجا وتكونت  
فيها حكومات منظمة سلكت في معاملاتها مع جيرانها سلوك من  
تقدمها من الدول ، فحلت العلاقات السياسية محل الحماسة الى  
الدعوة الاسلامية حتى لنجد هرون الرشيد خليفة المسلمين  
يراسل امبراطور دولة الفرنج ويهاديه ، ولعل ذلك كان التماسا  
لصداقته نكاية للدولة المتاخمة لدولته نعى دولة الروم الشرقية .  
على حين نجد عبد الرحمن الاوسط بالاندلس يراسل امبراطور  
الدولة الرومانية الشرقية ويهاديه ، التماسا لصداقته ونكاية  
للدولة المتاخمة له وهى دولة الفرنجة . فهل اذا حارب الرشيد  
دولة الروم الشرقية أمكن أن نصف تلك الحرب بأنها جهاد من  
أجل الفكرة الدينية ؟ وهل اذا حارب عبد الرحمن الاوسط

دولة الفرنجة أمكن أن نعد ذلك جهادا بالمعنى الصحيح ونعنى به نشر دعوة الاسلام ؟

الحق أن الدول الإسلامية عندما تكونت واستقرت أصبحت في تعاملها مع من جاورها من الدول دولة دنيوية لها علاقات ودية في جانب وعدائية في جانب آخر بحسب ما تقضى به مصلحتها وأصبحت فكرة الجهاد المجرد غير حقيقية ، وانما بقي اسم الجهاد مستعملا في وصف الحروب مع العالم المسيحي سيرا على التقاليد الأولى واعلاء من شأن الدولة بوضعها في مكان السائر على سنن أهل الدعوة الأوائل الأجلاء ، وتبريرا للحرب واستنهاضا لهمة الناس كي يبذلوا ما يرغب منهم بذله راضين شاكرين . أما من جهة المسيحيين فانهم كانوا في حروبهم مع المسلمين الى القرن العاشر لا يحاربون لأجل نشر مبدأ ديني بل كانوا يعتقدون انهم اصحاب بلاد يحاولون الدفاع عنها، وعلى ذلك لا يمكن أن تسمى حروبهم الى ذلك الوقت حروبا دينية اذ لم يكن لهم قصد من بث دعوة دينية. حقا لقد كان الفرنجة المسيحيون احيانا يقومون بحروب دينية ، ومثل تلك الحروب ما شنه شارل الكبير على ما جاور بلاده من سكسونيا الوثنية في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع للميلاد ، ولكن تلك الحروب كانت محلية قليلة الشأن. ويمكن أن نقول بوجه الاجمال أن العالم المسيحي قبل القرن الحادي عشر لم يعرف الحرب الدينية بالمعنى الصحيح ، أو بقول آخر لم يقم بحروب صليبية لبث دعوة المسيح في أنحاء الارض بثا منظما في دائرة واسعة كما فعل



العالم الاسلامى أيام الجهاد الاول ، فاذا نحن جئنا بعد ذلك الى القرن الحادى عشر ورأينا اسم الجهاد يتردد فى أنحاء العالم الاسلامى من نهر دجلة فى العراق الى نهر دورو فى الاندلس والى جانب ذلك يتردد اسم الصليب على طول خط الحدود الفاصلة بين العالمين : العالم الاسلامى والعالم المسيحى ، اذا رأينا هذا عرفنا أن هناك شيئاً جديداً وأن عاصفة قد ثارت فأعادت اسم الجهاد يهتف به من جانب المسلمين ، وأثارت اسم الحرب الصليبية يهتف به من جانب المسيحيين ، فما الذى أثار تلك العاصفة ؟



## صريح القسطنطينية

فى اواخر القرن الحادى عشر وجه امبراطور الدولة الرومانية الشرقية دعوة الى البابا ليدعو أمم الغرب من فرنجة وألمان وانجليز الى نصره الصليب وتخليص بيت المقدس من أعدائه المسلمين، فوجه البابا دعوته الى أوروبا فسارت فى الشعوب كما تسير النيران فى الهشيم ، وقامت أوروبا كرجل واحد الى الغرض الذى دعى اليه البابا ، فكانت حروب دموية بين الشرق والغرب استمرت ثائرة مدة قرن ثم خبا لهيبها تدريجا بعد ذلك ولو لم تنطفىء ناره جملة . فما الذى جعل امبراطور القسطنطينية يرسل تلك الدعوة ؟ وما الذى جعل البابا يقبها رغم الحفيظة التى كانت فى قلبه على الكنيسة الشرقية ؟ وما الذى جعل أوروبا تجيب دعوة البابا بهذه الحماسة العجيبة التى بدت منها ؟

لقد كان بين القسطنطينية وروما منذ قرون منافسة ومشاحنة (١) وما نحن نجد القسطنطينية تتناسى تلك الاحن

---

(١) عندما دب الضعف فى الدولة الرومانية شعر أباطرتها منذ القرن الثالث للميلاد بضرورة تقسيم الدولة الى أقسام لغرض حمايتها من غارات المغيرين فتقسمت الدولة فى أيام دقلديانوس الى أقسام أربعة ثم عادت بعده الى وحدتها ، فلما كانت أيام الامبراطور قسطنطين شعر بالحاجة الى تحصين =

القديمة وها نحن نرى أوروبا تدوس تلك المنافسة تحت أقدامها  
وسنابك خيولها ، ويتصافح المسيحيون من الشرق والغرب  
ويتحالفون على الإسلام

لقد كان الخلاف الذى بين شقى العالم المسيحى خلافا يكاد  
يمس أساس العقيدة ، فكان المسيحيون فى الشرق يعتبرون  
المذهب الغربى خرافة على حين كان خليفة القديس بطرس فى  
روما ( البابا ) ينظر الى الشرق أنه منشق عنه خارج عليه ،  
ولكم كان بين الاثنين مواقف عاصفة وتراشق بالالقباب ، بل  
لقد كان بينهما تنافس حربى ومثل ذلك أن بوهمند ( بيمند )  
ابن روبر جيكار الملك النرماندى على جنوب ايطاليا وصقلية

---

= الشرق بين العاصمة الكبرى التى تشرف على البوسفور فبنى مدينته  
القسطنطينية فى مكان قرية قديمة اسمها « بوزنطة » وجعل اقامته فيها ،  
وكان قسطنطين أول امبراطور مسيحى للدولة الرومانية ، ولعل مقامه فى  
القسطنطينية كان مقصودا به البعد عن رومة العاصمة القديمة ومركز الوثنية  
وهناك فى القسطنطينية نشأ مركز جديد قوامه الشعب اليونانى والمدنية  
اليونانية واللغة اليونانية . وعلى مر الايام صارت العاصمة الجديدة تنافس  
العاصمة القديمة فى كل شيء ، وقد زادت تلك المنافسة عندما تقسمت الدولة  
الرومانية نهائيا الى قسمين : الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ،  
والدولة الرومانية الغربية وعاصمتها رومة وزاد التنافس شدة عندما سقطت  
رومة فى يد البرابرة فى القرن الخامس للميلاد ، ولم يبق فيها ما يربط الشرق  
بالغرب ، وعند هذا بدأ البابا يظهر بنفوذه الدينى اذ أصبح هو المثل الوحيد  
للمدنية القديمة والشعب الرومانى وأصبح معدودا خليفة القديس بطرس  
الرومانى ولم يكن خاضعا لسلطة امبراطور الشرق فبدأت الكنيسة الرومانية  
تقف موقف التحدى والكبرياء أمام كنيسة قسطنطينية وسلطة الامبراطور  
الشرقى ، ثم انقلب الامر الى خلاف وشقاق وما زال الخلاف ينمو حتى كانت  
بين البابا والامبراطور فى القرون السادس والسابع والثامن مواقف عاصفة  
على أتر خلاف فى الجدل المذهبى فكان يخيل الى من يرى ذلك أن الدين  
المسيحى قد شطر شطرين لا يمكن التماهما .

عبر البحر الادرياتي ، وجعل يغزو ارض الدولة الشرقية  
بتحريض سيده البابا صاحب ولائه

ولكن تلك الفروق وتلك المنازعات لم تقف أمام التيار  
الجارف الذي اجتاح أوروبا ، فنسيت كل العداوات القديمة  
وسويت الحزون وتعانق أبناء المذهبين حتى ان بوهمند ذلك  
الامير الذي غزا ارض الدولة الرومانية الشرقية صار أحد القواد  
الكبار الذين ذهبوا الى القسطنطينية لنصرة كلمة المسيح

اما هذا الانقلاب الذي طرا على سياسة الدولة الشرقية  
وجعلها تطلب مساعدة البابا فيمكن كشفه من تتبع علاقة تلك  
الدولة بالدول الاسلامية اجمالا منذ القرن الثامن للميلاد. فقد  
كانت الدولة العباسية في القرن الثامن للميلاد في عنفوانها  
فسلبت جارتها الرومانية كثيرا من أملاكها ، فلما انشغل  
العباسيون بمشاكلهم الداخلية امكن دولة الروم ان تبقى  
ثابتة الحدود عند شرق آسيا الصغرى ، ثم مضت قوة الدولة  
العباسية وذهب أمثال المهدي والرشيد والمأمون وتلا ذلك  
استبداد جنود الاتراك بالخلافة العباسية فأخذت الدولة تضعف  
في نضالها الخارجي، وزادها ضعفا ان انفصل عنها كثير من البلاد  
التي بدأت تستقل كالأغالبة والادارسة في افريقية، واخيرا جاءت  
الضربة القاسية وهي استبداد بني بويه الشيعةين بأمر الخلافة،  
فأصبحوا وزراء في الاسم ولكنهم كانوا المسيطرين على الامر  
كله. وكان الخليفة أحيانا يحاول ان يثبت لنفسه أمرا فكان يحدث  
من وراء ذلك تشاحن وتنازع بينه وبين الوزير ، فاضطربت



أمور الدولة الإسلامية وتفرقت كلمتها وانفجر جثمانها فصار  
أجزاء متناثرة من امارات في فارس وخراسان واخرى في الشام  
وسواها في مصر . وهكذا وجدت الدولة الرومانية دونها  
فرصة سانحة فانتهزتها وأثار أباطرتها حربا طاحنة لاسيما  
أيام نقفور ( نيقفراس فوكاس ) و ( حنازيمس ) ( جون  
سيميسز ) بين عامي ( ٩٦٠ - ٩٧٥ ) بعد ميلاد المسيح ، فلم  
يستطع أمراء الحمدانيين الذين كانوا على حدود دولة الروم أن  
يثبتوا في ذلك النضال ، بل أخذتهم كتائب الدولة الرومانية  
بما لا قبل لهم به ، ثم فتحت سواحل الشام وعبرت جنود  
الروم نهر الفرات وكانت على طريق بغداد ، وذعر الخليفة المطيع  
حتى لقد باع عليه الأمير البويهى أثاث قصره ليستعد بثمنه  
للحرب . ولكن لحسن حظ دولة الاسلام رجعت عند ذلك جيوش  
الروم وانقضت تلك الموجة ولم تحطمها . كان هذا في القرن  
العاشر ثم طلع القرن الحادى عشر يحظ غير هذا ، وكان الامر  
ككفتى ميزان اذا رجحت كفة شالت الاخرى



في القرن الحادى عشر استولى على بغداد قوم من الترك ،  
وهم السلاجقة وكان أميرهم طغرل بك رجلا من أهل السنة  
شجاعا ، غير مأخوذ بالالقباب ، كما كان ملوك البويهيين ، فحفظ  
على الخليفة جلاله وهيبته ظاهرا وأخذ في يده أمر الدنيا يتحكم  
فيها بسيفه وأرادته فعلا وباستيلاء السلاجقة على بغداد سنة  
١٠٥٥ بعد الميلاد ( ٤٤٧ للهجرة ) دخلت الدولة الإسلامية في

دور غير الدور الذي مر بها في أواخر القرن العاشر

فقد استعادت على يدهم قوة شبابها ، أو ان لم يكن ذلك فقد عاد جيشها على الاقل الى سيرة الفتح والانتصار الذي نسيته الدولة في آخر أيام بنى بويه ، وقد توالى على أمر الدولة العباسية ملوك ثلاثة عظام من السلاجقة وهم طغرل بك واللب أرسلان وملك شاه ما بين سنتي ١٠٥٥ و ١٠٩٢ ( ٤٤٧ - ٤٨٥ هجرية ) ، وكانوا في سياستهم الداخلية مع الخلافة قانعين بالسلطان الدنيوى الفعلى تاركين كل مظاهر الرياسة والسيادة الاسمية للخلفاء من البيت المبجل الذى له المكانة السامية في قلوب المسلمين وهو بيت بنى العباس

وأما في سياستهم الخارجية مع من جاورهم ، ولاسيما دولة الروم الشرقية ، فقد كانوا لا يقنعون بسوى السيطرة والغلبة فبدأت جيوشهم من جبال طوروس وأرضروم، وما زالت تنحدر الى الغرب فى وديان آسيا الصغرى وهضابها ، وهناك شهدت مدينة قيصرية جيوشهم الغالبة، ثم خضعت بلاد أرمينية والقوقاز بعد دفاع لم تستطع الثبات عليه ، ثم كانت بعد ذلك موقعة ( ملاذ كرد ) بين أرضروم و ( وان ) سنة ١٠٧٢ وكان هناك الانتصار الذى لا يزال يذكر للسلطان ألب أرسلان ، وأخذ الامبراطور الشرقى ( رومانوس ) أسيرا وهو جريح بعد دفاع بطل مستميت ، وقد سار ملك شاه بن ألب أرسلان على سنة أبيه بعد مقتله وزاد على الحرب مع الروم حروبا أخرى مع ما يليه من البلاد ، وكان من بينها بلاد الشام التى كانت لا تزال فيها



بقية من حكم الفواطم وما كان عام ١٠٩٠ حتى كان ملك شاه يطاء بحدوده الشرقية أكناف الصين ويدوس بحدوده الغربية عواصم الفواطم والرومان من قبل الشام وآسيا الصغرى وتكونت دولة السلاجقة فى أحشاء هضبة الاناضول وأملى ملك شاه ارادته على من يليه ، وكان من بين من يرتجفون من خوفه الامبراطور الكسيوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية

وكانت تلك الحروب ولا شك حروبا لا يقصد بها سوى مد السلطان والغلبة - فان السلاجقة كانوا قوما محاربين أتوا من أواسط آسيا فما زالوا يحاربون أمراء المسلمين الى ان دانت لهم بغداد، ثم ما زالوا يحاربون بعد ذلك من أجل فتح سائر ما يليهم من الاقاليم وكانت تلك الاقاليم التى تليهم فى أيدي الرومان على الاكثر ولو أنها كانت فى أيدي سواهم لحاربوهم ولو كانوا من أمراء المسلمين

وقد سببت تلك الحروب كما تسبب الحروب فى كل عصر عداوة بين الجانبين المتحاربين فحدثت حوادث لا يخلو من مثلها وقت مضطرب مثل ذلك الوقت، وما كانت تلك العداوة وما نشأ عنها من الحوادث لتأخذ صورة خاصة فى التاريخ لولا ما وقع بعدها من الحوادث الجليلة التى هزت العالم أجمع

بينما كان الكسيوس يفكر فى طريق يخرج به من حرج موقفه أمام ملك شاه اذا بالموت عدا على عدوه المخيف وتمزقت بموته دولة السلاجقة التى بناها ثلاثة من ملوكهم العظام ، وهناك تنفس الامبراطور وكان رجلا من رجال الدهاء والاحتياىل فرأى أن ينتهز فرصة انشلام ذلك الهيكل العظيم الذى الى شرق بلاده



فيحطمه ليأمن غائلته فأرسل الى فتية في أوروبا معودين الحرب  
كى يأتوا ليعيدوا له ما فقدته دولته متناسيا ما كان بين الغرب  
والشرق فى العالم المسيحى من منافسة وخلاف وكانت الظروف  
مساعدة له فرأى أن يلبس الحقائق لباسا يجعله يستفيد منها،  
فصور المسلمين أنهم قوم أتوا الى بلاده لا يقصدون الا حربا  
دينية يهدمون بها ديانة المسيح، وعزا ما ارتكبه الجنود السلاجقة  
من الاعتداء على المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى الى رغبة  
كمينة فى نفوسهم فى اذى النصارى ، وساعد على اذاعة أمثال  
هذه المزاعم جماعة من المتحمسين أمثال بطرس الراهب الذى  
ثارت نفسه عند ما رأى قبر المسيح فى يد السلاجقة الظافرين  
وهم حديثو العهد بظفرهم، وهكذا سمعت أوروبا نغمة لم تطرق  
أذنها من قبل : دعوة الى نصره المسيح على المعتدين المسلمين .  
وما هو الا أن صرخ الكسيوس حتى أجيبته الدعوة بثورة هزت  
أرجاء العالم فلقد أرسل الى البابا ( اربانوس الثانى ) وهو فى  
مجلس دينى فى ( كليرمون ) سنة ١٠٩٥ يدعو الى نصره المسيح  
واسترداد بيت المقدس من السلاجقة فما انفض ذلك المجلس  
حتى نادى البابا نداءه التاريخى الذى دوى فى أنحاء أوروبا .  
وانطلق المتحمسون فى أنحاء البلاد يصورون الاسلام ظالماتيا  
مغيرا ولم تكن حكايتهم خالية من الحقيقة ولكنها كما قدمنا كانت  
حوادث طبيعية فى عصر ثارت فيه ثائرة الحروب بين متنافسين  
قديمين ، على أنه لم يكن احد ليمحص تلك الحجج التى أوردها  
أمثال بطرس الراهب فثارت العاصفة هوجاء تخبط تخبط.  
عشواء

## لماذا ليت أوروبا الدعوة ؟

إذا كان الكسيوس قد تناسى ما كان بين دولته وبين الغربيين، فأعجب من ذلك أن يأتي الغرب الى مساعدته بتلك الحماسة العظيمة ، فالحق أن أوروبا في هذا الوقت كانت مستعدة أعظم استعداد لايقاد النيران وكان البابا والكنيسة هما الطريقان الوحيدان الى اثاره تلك النيران وقد عرف الكسيوس أن يلمس المكان الذى فيه سر الانفجار

كان الدين فى القرن الحادى عشر سيد أوروبا ، وكان رجال الدين وعلى رأسهم البابا فى ذلك القرن اصحاب عواطف اهل أوروبا ، وكان فى أوروبا فى ذلك الوقت رجال يحبون الحرب ويعيشون له ولا يسعهم الا تلبية الداعى اليه ولا سيما اذا كان لنصرة الدين . وذلك كله يرجع الى اسباب لا بد من بيانها موجزة فى الفقرتين الآتيتين :

### ( ١ ) الانقلاب فى نظام أوروبا

حدث انقلاب عظيم فى نظام الدولة الفرنجية فى أواخر القرن التاسع للميلاد ، وذلك أن شارل الكبير كان قد أقام دولة عظمى تشمل أكثر بلاد الدولة الرومانية القديمة ثم خلع البابا عليه لقب الباباوة وأصبح لقبه امبراطور الدولة الرومانية الغربية ،

وقد حاول شارل أن يجعل دولته على نظام شبيه بنظام الدولة الرومانية القديمة وأكبر ما كان يرمى إليه جعلها دولة واحدة وان يكون هو على رأسها ومركزها . ولقد كان تحته طائفة من الحكام والرؤساء ، ولكنه عمل على أن يكونوا عمالا له مؤتمرين بأمر الحكومة المركزية ثم سار ابنه ( لويس التقى ) على مثل ذلك بما استطاع ، لكنه لم يكن كأبيه دراية وكياسة وقوة ، فما هو الا أن مات لويس حتى تقسمت الدولة الرومانية الغربية الى اقسام ثلاثة بين أولاده ، وبدأت بذلك أول حلقة من سلسلة تقسم لبث يحطم تلك الدولة الى آخر القرن التاسع للميلاد

وقد كانت أوروبا في ذلك القرن التاسع مهددة بأخطار جسيمة من تجدد اغارات القبائل المتوحشة وأكبرها عند ذلك قبائل الترمانيين والمجريين زيادة على ما كان يصيبها من غزو العرب في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا برا وبحرا ، وقد كان لهذه الغزوات أثر بعيد المدى

كان الترمانيون يغيرون على الدولة الرومانية في خفاف السفن من مصبات الأنهار لانهم كانوا قوما من بلاد الشمال وشواطئ البحار لهم جراءة على المحيط ودراية بتسيير السفن وكانت اغاراتهم للسلب والتدمير ولا تستطيع دولة الرومان الغربية أن تدفعهم عن أنفسهم اذ لم يكن فيها مدن حصينة ولا كتائب سريعة ، وكان المجريون في اغاراتهم فرسانا يجتاحون البلاد ثم يعودون بعد أن يسلبوا ما شاءوا ولا تردهم

حصون ولا أسوار، ولم يكن دونهم عند الفرنج كتائب ذات دراية بحركات الفرسان ، ولهذا استقر رأى أمراء الدولة الرومانية الغربية على أن يعنوا بأمرين لا غنى للدولة عنهما إذا شاءت حماية نفسها من أعدائها ، وذاتك هما : بناء الحصون الكثيرة والأسوار على المدائن من جهة ، ومن جهة أخرى تكوين كتائب للفرسان معودة الكر والفر على أسلوب سريع كى يستطيعوا دفع عادية المغيرين السريعين . وبذلك وجد أمراء الدولة أنفسهم بعد حين ولهم حصون وأسوار تحميها كتائب من الفرسان مدربة خاضعة فكان لكل منهم بذلك دائرة خاصة به عليه حمايتها وله بطبيعة الامر ادارتها فنما نظام جديد عرف فيما بعد فى القرن العاشر وما يليه بنظام الاقطاع



أحدث نظام الاقطاع نقضا فى أساس الحكومة القديمة التى كانت فى أوروبا منذ أيام الدولة الرومانية الأولى وذلك أن الحكومة المركزية أصبحت صورة لا حقيقة وأصبح الأمراء هم أصحاب الحكم فى جميع الانحاء ، وصارت العلاقة الجديدة بين طبقات المجتمع قائمة على أساس التعاقد بعد أن كانت قائمة على أساس السلطة والسيادة يعنى أنه أصبح بين الأمراء من جانب وبين الحكومة المركزية من جانب آخر عقد يتعهد فيه كلا الجانبين تعهدات يقوم بأدائها نظير حقوق يكتسبها وكانت أكبر واجبات الأمراء الاشتراك فى حروب الدولة بأنفسهم وفرسانهم وامتداد الحكومة المركزية بشىء من الاموال . وكانت أكبر

حقوقهم ان يكونوا حكاما يخضع لهم من دونهم من الامراء  
ويدفعون لهم الضرائب ويشتركون فيما يكلفهم به صاحب  
ولاثم من الاعمال ، وكان كبار الامراء متعاقدين مع صفارهم  
على شروط شبيهة بتلك ، وهكذا كان هؤلاء مع من يليهم فكان  
نظام الاقطاع أشبه شئ بالهرم رأسه الحكومة المركزية وقاعدته  
صفار الامراء والفرسان ثم الشعب ، وكان الشعب العام  
مرتبطا بواجبات نحو الامير الذى يحكم بلاده فيدفع الاموال  
اليه ويخضع لقضائه ويهب له مقدارا معيناً من العمل فى أرضه  
فى نظير حماية الامير له من اعتداء الغير وصد غارات المتوحشين  
عنه

على هذا انقسمت أوروبا الى اقسام صغيرة من الاقطاعات  
وكانت الحكومات المركزية فى الواقع لا علاقة لها بالافراد بل  
كانت علاقتها بكبار الامراء تارة على سلم وتارة على حرب



مضى القرن العاشر وفى أوروبا دول ثلاث كبرى كل منها  
مقسم بحسب ذلك النظام الاقطاعى وتلك هى ألمانيا ويحكمها  
حكام من أمرائها بعد انقراض أسرة الفرنجة من نسل شارلمان  
وكانت دولتهم مكونة من ألمانيا وإيطاليا واسمها الدولة الرومانية  
المقدسة ، ثم فرنسا ، ثم إنجلترا

ولم تكن تلك الدول دولا بالمعنى الحقيقى اذ كان الحكام  
السياسيون لا يتعدى حكمهم اقطاعاتهم وكثيرا ما كان الامير  
اذا لم يجد ميادانا للحرب يصد فيه غارات الاجانب او



المتوحشين يغير على من يليه من جيرانه ولهذا كانت أوروبا في ذلك الوقت وما بعده مجالا لحروب لا عد لها ولا حصر بين بعض الامراء وبعض ، ولم تخل الحكومات المركزية من مناوأة امرائها بل كانت تدخل في ميادين حروبهم مؤلبة جماعة على أخرى تنتصر تارة وتنهزم أخرى

وهكذا عاد نظام الاقطاع على أوروبا بمنافع واضرار فقد رد عنها غارات المجر والنرمان وامثالهم ولكنه نزع أمنها واطمئنانها في الداخل وجعلها بؤرة حروب دائمة

في ذلك الوقت اتت دعوة الدولة الشرقية فما كان أسرع امراء أوروبا وفرسانها الى الاجابة ملتجئين هناك ميدانا جديدا للحروب

### ( ب ) روح العصر في أوروبا

كان عهد الاقطاع بطبيعة ظروفه عهد الفروسية وما يتبع هذه الصفة من مميزات فكان الامير بحكم تعاقد حاميها لمن في كنفه يرى نفسه سيدهم المسئول عن سلامتهم ولو كلفه ذلك بذل نفسه . وقد جرت العادة مدة طوال السنين على تقاليد صارت على مضي الزمن مبادئ يجب على الشريف ان يسير على مقتضاها ، فكان من مجموع ذلك قانون به تفاصيل ما يحل للشريف ان يعمل وما يحرم عليه وكانت تلك المبادئ ترمى الى حماية الضعفاء ونصرة الدين واجلال الجمال والوداعة وسوى ذلك من صفات الحسن الذي يتجلى في المرأة، فكانت الشجاعة اولى صفات الشريف لا تقوم عنها صفة أخرى ، وكان استخدام



## مُحَارِبٌ مِنْ الْقُرُونِ الْوَسْطَى

( عَنْ كِتَابِ سِتَائِلِي لَيْن بُول )

السيف من أول ما يجب عليه إتقانه الى جانب المهارة في ركوب الخيل وأما الرماية بالقوس والسهم فكانت مما يترك للمحاربين في المحل الأدنى

وقد شهد القرن العاشر تغيرا جذيرا بالذكر في عقول أوروبا اذ قد مضت أظلم القرون مع القرن التاسع وبدأت حياة جديدة تدب الى النفوس ولو انها لم تكن تلك الحياة الفياضة التي تمشت في العروق منذ القرن الثالث عشر . وقد بدأ ديب تلك الحياة يظهر بشيء من الجلاء في القرن الحادى عشر وكانت أولى علاماتها تلوح هنا وهناك اما في بلاط ملك واما في حنايا دير

بدأت الامم الفتية تتطلع الى الماضى وترى انفسها حفدة الرومان أصحاب المدنية القديمة فجعلت تلتمس العلم من بقايا مخلفاتها ووجدت معلمين لها من رجال الدين الذين كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض علم القدماء فانصبغت تلك النهضة الصغيرة بصيغة رجال الدين . ولما تفتحت العقول أول ما تفتحت للمعارف وجدت الميدان الذى فتح دونها مصبوغا بصبغة الدين ، فكانت حماسها الشبيهة بحماسة الطفولة تدفعها الى الاهتمام بكل ما يمس الدين حتى لقد ظهر اثر هذا فى آداب العصر الذى يتكون من قصص العهد القديم والحديث ممثلة فى قالب روائى وكان المثلون فى الغالب من القسس

ولعل تسلط الكنيسة فى ذلك العصر كان قصارى ما وصلت اليه من التسلط على قلوب الناس ولما يحرفهم عن عقيدتهم شيء من

زيغ العلم أو شك الفلسفة حتى لكان أكبر عقاب يقع على الفرد حرمانه من الكنيسة وإخراجه من دائرة الإيمان والمؤمنين وهو عقاب أذل أكبر رأس في العالم إذ ذاك وهو الامبراطور نفسه . وكان ذلك الحرمان إذا وقع على اقليم تعطلت شعائر الدين فيه فلم يجد الناس من يأخذ اعتراف الميت ولا من يقرأ عليه الصلوات التي توصله الى الآخرة، وكان مثل ذلك العقاب كافيا لارغام اكثر الامراء عنادا واذلال احدهم شوكة . وكانت الكنيسة اذا فرضت على الناس فرضا يكفرون به عن ذنوبهم لم يسعهم الا الازعان ، فيصوم الفرد أو يضرب أو يذل نفسه بالسؤال أو يشهر به ويخرج من بلده في زى النادم « قبعة خاصة وعصا طويلة واقدام عارية » فيذهب الى بيت المقدس أو الى روما ليمحو ذنوبه

وقد كانت الكنيسة عاملا من العوامل الفعالة طوال القرون الوسطى (١) وزاد نفوذها في العصر الاقطاعي اذ كانت هي المحكمة في منازعات المتنازعين ، ترأب الصدوع وتداوى الجروح وتجعل للناس قواعد لحرامهم وحلالهم في الحرب ، تحاول بذلك تخفيف ويلاتها . وكانت سلطتها لا تقف عند حد اقطاعي ولا دولة معينة بل تشمل جميع اتباع المسيح المؤمنين بها في وقت لم يكن هناك مركز سياسى قوى لانفراد كل امير باقطاعيته

---

(١) القرون الوسطى اصطلاح تاريخى يقصد به الفترة بين سقوط مدينة روما في أيدي البرابرة سنة ٤٧٦ للميلاد وبين بدء التاريخ الحديث الذى يوضع حده عند سقوط القسطنطينية في يد الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ للميلاد

مستقلا بأمره - وعلى ذلك كان سلطان الكنيسة هو السلطان العام الوحيد الذى يشمل جميع انحاء أوروبا

وقد اتفق فى أواخر القرن الحادى عشر حدوث نضال كبير بين الامبراطورية ( السلطة الدنيوية ) وبين الكنيسة ( السلطة الدينية ) وكانت نتيجة ذلك النضال انتصارا باهرا للبابا، وذهب الامبراطور العظيم وهو اذ ذاك « هنرى الرابع » الى البسابة « جريجوار السابع » فى قرية « كانوسا » بإيطاليا وهناك وقف حاكم الدنيا أياما ثلاثة عند باب رئيس الكنيسة عارى الرأس حافى القدمين يطلب العفو والصلح

وعقب ذلك بسنين قليلة كان البابا « اربانوس » فى مجمع من رجال الكنيسة فى « كلرمون » فأتاه صريح امبراطور الدولة الشرقية يدعو للمساعدة فى حرب المسلمين . فما انفض ذلك المجلس سنة ١٠٩٥ م حتى كان البابا قد اعلن حربا لنصرة المسيح والصليب على المسلمين واستنقاذ بيت المقدس منهم ، فأية صيحة تكون صيحة البابا فى مثل هذا العصر ؟ لقد كانت صيحة ترددت كالرعد القاصف وسارع الى تليتها شعب مؤمن مطيع على رأسه طائفة من الامراء الذين لهم دراية بالحروب وبهم غيرة على الدين ورغبة فى نصرته



## انتصار الصليبيين

بدأت الحرب الصليبية فذهبت جموع بعد جموع في سنة ١٠٩٦ ( ٤٨٩ هجرية ) ولكنها لم تتم شيئا ثم تبعتهها جموع أخرى في سنة ١٠٩٧ بقيادة أربعة من كبار أمراء أوربا وهم ( جودفرى ) حاكم بولونى و ( ريمون كونت طولوشه ) و ( بالدوين ) اخو ( جودفرى ) و ( بوهمند ) ابن ( روبير جيكار ) النرماندى حاكم جنوب ايطاليا وصقلية . وكان يساعدهم آخرون من الاشراف والفرسان ، فلما بلغت الحملة القسطنطينية استوثق الامبراطور الكسيوس من حلفائه أنهم يردون اليه ماسلبه الاسلام من بلاده ، ثم سمح لهم أن يجتازوا بأرضه فساروا وعبروا المضائق وهزموا المسلمين فى الاناضول وكانوا اثنتاتا بعد ذهاب ملوكهم الكبار ، وكان أكبر انتصار للصليبيين عند ( دور يليوم ) أو ( اسكيشير ) فى غرب آسيا الصغرى . ثم مازال النصر لهم الى ان اتموا السير وبلغوا الشام واقاموا دولا أربعة اقتطعوها من أرض الاسلام وهى ( الرها ) و ( انطاكية ) و ( طرابلس ) و ( بيت المقدس ) وجعلوا الملك فى يد حاكم بيت المقدس وهو (جودفرى) وقنع الباقون من الامراء بالولاء له حسب النظام الاقطاعى فى أوروبا

وجعلوا نظام الحكم في تلك البلاد على الاسلوب الاقطاعي . وتم  
ما ارادته اوروبا ، وردت موجة الفتوح الاسلامي عن اسوار  
القسطنطينية بتلك الضربة الشديدة ، ولم تعد الدول الاسلامية  
الى محاولة فتحها من جديد الا بعد ان تفيق منها وذلك بعد  
نيف وثلاثة قرون على يد الاتراك العثمانيين



## الفصل الثاني

ظهور صلاح الدين



## العالم الاسلامى يستجمع قوته للدفاع

كان العالم الاسلامى فى ذلك العصر أى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر يشمل أقساما ثلاثة كبرى ولكل منها فروع وأجزاء فى طرفه الغربى كانت دولة الاندلس وقد عبرت اليها جموع المرابطين من افريقيا ، فهزمت المسيحيين الاندلسيين وأعادت اليها شيئا يشبه ما كانت عليه من القوة أيام دولة بنى أمية . وبعد المرابطين يأتى اليها الموحدون من افريقيا فيرفعون علمها الى أواخر القرن الثانى عشر ثم تتحطم تلك الدولة حتى لايبقى منها الا غرناطة لتشهد تاريخ القرون التالية

وكان فى افريقيا الشمالية من الغرب دول يرتبط تاريخها بتاريخ دولتى المرابطين والموحدين . وأما فى الشرق فكانت دولة العبيديين أو الفاطميين وقد بقيت هناك الى أواخر القرن الثانى عشر حتى قضى عليها البطل الكبير يوسف بن ايوب صلاح الدين كما سيأتى . وكان فى شرق هذه البلاد رقعة الدولة العباسية مقسمة بين أمراء السلاجقة بعضهم من نسل ملك شاه وبعضهم من نسل قواده ورجاله ، وكان للخلافة على هؤلاء سيادة اسمية لاتكاد تعدو السكة (النقود)



والخطبة في المساجد، ولم تكن بين دول الاسلام رابطة متينة بل ان اثنتين منها كانت على خلاف ومنافسة بل على عدااء وهاتان هما الدولة العباسية والدولة الفاطمية ، فان الاولى كانت دولة سنية والاخيرة كانت شيعية ولكل من الدولتين خليفة يرى نفسه احق بأن يدعى له على المنابر جميعها، فكان من الطبيعي أن العالم الاسلامي عندما صدمته الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر لم يكن متماسكا بل كان مقسما الى دول متنافسة ، ولم تكن الدولة العباسية في ذاتها دولة بالمعنى الصحيح بل كانت مقسمة الى امارات كل منها مستقل بأمره لاتربط بينها الا جامعة اسمية لا حقيقة لها . وكانت الدولة العباسية هي التي قابلت الصدمة فلم تقو على احتمالها ثابتة بل تصدعت وتداعت وخيل للناس أن قد هوت وضاع أمرها ، ولم تجد لها نصيرا من داخلها اذ كانت كلمتها مفرقة ، ولا من خارجها اذ كان الفواطم أقرب الى الشماتة بها . وكان أهل أفريقيا والاندلس في شغل بأمرهم عن أن يمدوا مساعدة لاحد آخر ، وزد على ذلك بعد الشقة وقلة الارتباط . ولكن ذلك التصدع لم يكن ظاهرا فان الدولة الاسلامية مالت امام الموجة القوية ولم تكن هزيمتها انكسارا . بل ان العقيدة لم تتزعزع في وقت من اوقات تلك المحنة ولم يكن في الناس شك من أمرهم بل ظل في نفوسهم ايمان صادق ان مال تلك الموجة التي اتت من وراء البحر الى الضعف وأنه لا بد



من الانتصار عليها وردّها من حيث جاءت بعد حين . وقد ظهرت هذه العقيدة في كثير من الوجوه فما كادت الامة تفيق من الصدمة الاولى حتى أخذ رجالها يعملون على اظهار تلك العقيدة الكامنة . وكان أول من أظهرها أتاك عماد الدين زنكى صاحب الموصل (١) اذ استولى على أمارّة ( الرها ) في عام ١١٤٤ م - ٥٣٩ هـ . بعد أن هزم الصليبيين

فزعت أوروبا عند ذلك،وجردت الكتائب لاسترداد ما فقدته الصليب ولكن الذى ينعم النظر في تلك الحرب الثانية لايسعه الا أن يلاحظ أن الحماسة الدينية قد خبت قليلا في قلوب أهل أوروبا . وقد عجزت كتائب المسيحيين عن استرداد الرها مع اشتراك اثنين من كبار الملوك المسيحيين في الحرب وهما الامبراطور كتراد الثالث عاهل الدولة الرومانية المقدسة ولويس السابع ملك فرنسا ، وقد استمرت الدولة

---

(١) هو ابن أحد أمراء العسكر تحت قيادة ملك شاه وهو آقسنقر. وقد أظهر عماد الدين بعد موت أبيه شيئا كثيرا من الشجاعة والاقدام حتى أن السلطان محمود السلجوقى أقطعه واسط ( سنة ١١٢٢ م الموافقة لسنة ٥١٦ هـ ) ثم أقطعه الموصل والجزيرة ومنحه لقب « أتاك » ومعناه الأمير الحاكم وكانت أيامه كلها اضطراب من جميع النواحي لضعف الحكومة العباسية واضمحلال أمر حماتهم سلاطين السلاجقة ولهذا كان نفوذ أمراء النواحي بالفا أعظمه وكانت نتيجة هذا أن زاد أمر الصليبيين وعظم بلاؤهم فيما يليهم من بلاد الاسلام فتجرد عماد الدين الى أعداد العدة لحربهم وكان أول نصر أعلى من شأنه فتح حلب وقد تحاشى الدخول في المنازعات الكثيرة التى كانت لا تنقطع فيما بين أمراء السلاجقة من جهة وبين السلاجقة والخليفة من جهة أخرى . بل جعل كل همهم مكافحة الفرنج بالشام ففتح منهم فتوحا ثم توج كل أعماله بفتح الرها ( إذاسه ) ( ١١٤٤ م - ٥٣٩ هـ ) وكان لسقوطها في يده دوى عظيم في أوروبا اهتزت له شعوبها وجهزت عقب ذلك حملة كبرى تعسرف بالحملة الصليبية الثانية

الاسلامية على محاولتها الاولى تسعى للخلاص من الاغراب  
الذين اخذوا بعض بلادها الى ان ظهر رجل الجهاد الاكبر  
وهو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى فجعل حياته  
لاظهار عقيدة الامة الاسلامية في النصر ظهورا واضحا (١)



وكان صلاح الدين يوسف بن ايوب أحد رجال هذا الامر  
العظيم وسيفا من سيوفه . وليس بعجيب ان ينشأ رجل  
تابعاً لعظيم ثم يعلو شأنه ويظهر امره حتى يغطى ذكره على  
ذكر سيده ويصبح المجد والعظمة للتابع دون المتبوع

---

(١) مات عماد الدين زنكى شهيدا بعد أن فتح كثيرا من بلاد الفرنج وذلك  
انه قتل في نومه - قتله جماعة من مماليكه بتحريض أعدائه وكان من خير  
أمراء المسلمين سيرة وعدلا واصلاحا لموارد الثروة والتماس سبل الخير للناس.  
هذا عدا تعظيمه للعلم والادب . فلما توفي ترك اولادا اربعة اكبرهم سيف  
الدين غازي . وثانيهم نور الدين محمود وقد استولى الاول على الموصل  
والجزيرة وورث الثاني اماره حلب . وكان ابنه نور الدين جنديا شجاعا وهو  
في الوقت نفسه فقيها عالما وكان بحكم وجوده في حلب اقرب الى حدود  
الفرنج ولهذا كان هو صاحب حروبهم . وقد قابل نور الدين صدمة الحرب  
الثانية التي اثارها أوروبا لاسترداد اذاسة حتى اذا ما انتقضت موجتها  
وخبث نارها عاد الى سيرة ابيه فبدأ يغير على الامارات الصليبية وكانت وطاته  
في حروبه اشد من وطأة ابيه ونصره أكثر اطرادا . وقد فكر في أخذ دمشق  
لكي يضمها الى دولته فتكون قوة له في حربه ضد الفرنج وحانت له فرصة  
رضى أهلها بالانضمام الى دولته فدخلها بغير حرب وسط تهليل الناس  
واعطاه الخليفة لقب ( الملك العادل ) عقب ذلك الفتح ( سنة ١١٥٤ م -  
٥٤٩ هـ ) وما زال أمره بعد ذلك في نمو حتى ارسل الحملة الى مصر  
( سنة ١١٦٤ - ٥٥٩ هـ ) .

# الدول الإسلامية بالشام والجزيرة

## ( ١ ) الشام والجزيرة

قتل عماد الدين زنكى وهو فى ميدان الحرب وبعد مقتله تقسمت دولته بين ابيه واولهما سيف الدولة غازى الذى استولى على الشرق وجعل مقره الموصل . وثانيهما نور الدين محمود الذى استولى على الغرب وجعل مقره حلب ، على أن نور الدين هو الذى سار على سنة ابيه وقد عاش مدة أطول من أخيه ، ولهذا تمكن من بسط سلطانه على البلاد التى ورثها أبوه الشهيد عماد الدين واستولى على غيرها مما فتحه من أملاك المسلمين المستقلين أمثال دمشق وبعليك ومما فتحه من أملاك المسيحيين بعد أن فشلوا فى حملتهم الثانية التى اشترك فيها كراد الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ولويس السابع ملك فرنسا

وقد كانت سياسة نور الدين فى فتح البلاد التى بيد أمراء المسلمين أن يقنع بدخول الاقليم فى دائرة دولته - لا يريد من وراء ذلك زيادة فى الملك والثروة بل كان كل قصده أن يجعل تحت سلطته دولة قوية يستطيع أن يصدم بها الصليبيين صدمة قوية تصدع أركان دولتهم ، فانه قد



خريطة دولة نور الدين وما جاورها



جعل قصد حياته الجهاد واخراج المسيحيين من بلاد الشام .  
وكان قوى الايمان بما هو فيه من عمل ينظر الى حروبه  
نظرة شبيهة بنظرة المسلمين السابقين في اول الاسلام الى  
حروبهم مع اعدائهم ، ولا ادل على ذلك من ان اخا له فقد عينا  
له في موقعة اذ اصابه فيها سهم ، فقال له معزيا : « لو  
كشف لك عن الاجر الذى اعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى » .  
فكان ذلك الرجل المجاهد لا يتطلع الا الى جمع الدولة  
الاسلامية تحت يده لتكون له قوة على الجهاد . فكان اذا  
فتح حصنا اسلاميا سلك احد مسلكين : فاما اقر عليه  
حاكمه الاول اذا اطمأن اليه وعرف انه يقدر على الدفاع  
عنه والبقاء الى جانبه ، واما ان يقطع ذلك الحاكم ارضا بدلا  
من حصنه ويضمه الى بلاده . وقد كان اذا أعطى بدلا اجزل  
في عطائه كما يرضى المحروم وامثلة هذا كثيرة ، منها انه  
عندما استولى على قلعة ( جعبر ) وهى حصن منيع على  
الشاطئ الشرقى للفرات الاعلى أعطى صاحبها شهاب الدين  
العقيلي اقطاعا عظيما بدلها قرب ( حلب ) ومقدارا من المال  
( نحو عشرين الف دينار ) وما كان فى تلك القلعة من غنى  
ينتظره او مال يحصله الا انها موقع حربى ينفعه فى غرضه .  
ويمكن ان نصف دولة نور الدين بأنها كانت دولة اقطاعية  
على نسق الاقطاع فى اوروبا فقد كان العصر عصر اقطاع فى  
الشرق والغرب على السواء ، وكان هو رئيس تلك الدولة  
الاعلى وتحت أمره عدد كبير من الامراء كل فى جهته يحكم

مستقلا على أن يكون هو وجنوده في حروبه . ومما يسترعى النظر في تلك الدولة كثرة القلاع الحصينة والقصور المنيعة المبشرة في السهل وعلى قمم الجبال . ولعل الاسباب التي دعت الى بناء تلك القلاع في الغرب في أوروبا ، هي نفسها التي دعت الى بناء مثلها في الشرق الاسلامي . فقد كانت الحكومات المركزية في ذلك الوقت مزعزعة ، وكانت الاغارات كثيرة لا حصر لها بين ترك يغيرون من الشرق ومسيحيين يغيرون من الغرب و فرق دينية ( كالشيعة الاسماعيلية ) ( ١ )

---

( ١ ) مذهب الشيعة في أصله مذهب سياسي يرمى الى تفضيل بيت الرسول في وراثة الدولة الاسلامية واذا قيل بيت الرسول فانما يقصد به نسل على من فاطمة زوجة ابنة النبي عليه الصلاة والسلام - ولكن الشيعة ساروا على مناهج خاصة فيما بعد في تعبدهم حتى لقد اتخذت مذهبا دينيا خاصا وبذلك صارت الشيعة فرقة دينية سياسية في آن واحد . ثم غلا اصحاب هذا المبدأ فادخلوا في مناهجهم كثيرا من البدع والرسوم من مذاهب غير المسلمين واتخذ جماعة من الثوار على الدولة الاسلامية مذهب الشيعة وفكرتها وسيلة يصابون بها الى اغراضهم في الهدم ومن هؤلاء مؤسس فرقة الاسماعيلية وهو الحسن بن صباح ( والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق أحد الائمة من نسل على ) كان الحسن بن صباح رفيقا في الصبا لنظام الملك الذي صار وزير السلطان السلجوقي العظيم ملك شاه . وقد عجز عن أن يبلغ مآربه من السيادة في تلك الدولة فلجأ الى الهدم فأسس فرقة غرضها القتل والفوضى وكان أفرادها يدعون لمذهب الشيعة - وقد اتصل بالفاطيين بمصر وهم من الشيعة الاسماعيلية كذلك وجعل يدعو لهم بنفسه ورجاله الذين انضموا اليه وكان من بينهم جماعة يطيعونه طاعة عمياء ويسمون الفدائيين وهم الذين يقومون بأعمال القتل التي يأمر بها رئيسهم وكانوا يلقبونه « بالسيد » و « سيدنا » و « شيخ الجبل » وكان نظام هذه الطائفة بهريا عجيبا نسجت على منواله الجمعيات السرية في بلاد أوروبا وآسيا ، وقد نجح ابن صباح في الاستيلاء على قلعة ( الموت ) الحصينة . ويطلق عليها « وكر العقاب » في جبال مازندران بفارس . وهذه الجمعية هي التي قتلت نظام الملك . رفيق ابن صباح القديم ، وكان لها أثر كبير في تلك العصور اذ قتل على يد الفدائيين عدد كبير من أمثال الرجال وعجز عن القضاء عليها كبار القواد مثل ملك شاه وصلاح الدين فبقيت الى أن قضى عليها أخيرا سليل التتار الجارف

تهبط بين حين وحين كالعاصفة المخربة - ولهذا كانت حاجة الشرق الى القلاع والفرسان مثل حاجة الغرب على السواء. ونشأ من هذه الحاجة نظام اقطاعى كما نشأ فى أوروبا لنفس الاسباب

### (ب) مصر

أما فى مصر فكانت دولة أخرى تخالف ما فى الشام والجزيرة فى وجوه كثيرة - فقد كانت دولة الفواطم وهم شيعة علويون لهم خليفة غير خليفة السنيين وحكومة مستقلة موحدة ، ومدنية تالدة خلفها مؤسسوا الدولة منذ قرنين

وكانت مصر فى القرن الثانى عشر ميدانا لحوادث عظيمة كان لها أثر كبير فى مصير العالم الاسلامى . كان شعب مصر الهادى المنصرف الى أعماله تاركاً الحكم الى حكامه الذين استولوا على البلاد عنوة منذ أيام المعز لدين الله فى أواخر القرن العاشر للميلاد . وكان المصريون من أهل السنة ولكنهم خضعوا لتلك الدولة الشيعية وانصرفوا الى أعمالهم لا يهتمون بشئ من أمر الدولة إذ كانت الحكومة على وجه الاجمال لا تتدخل كثيراً فى عقائدهم

وقد حدث على مر الايام شئ عظيم من التفاهم بين الحاكم والمحكوم حتى كادت الشيعة المصرية تكون سنية الا فى بعض المظاهر والرسوم . ولكن هدوء تلك البلاد لم يبق كما كان بل حدث تغير فى القرن الثانى عشر عند ما ذهب أجيال الخلفاء العظام من الفواطم ووقع الامر الى سلسلة متأخرة من

خلفاء لا حول لهم ولا قوة فصار الحكيم الى قواد الجيش والوزراء من عز منهم غلب واستولى على الخليفة . وكان الخليفة فى العادة يختار طفلا من البيت الفاطمى ، فكان بعضهم لا يعدو سن الرابعة كالفايز بنصر الله الذى حكم بين سنتى ( ١١٥٤ - ١١٦٠ ) من الميلاد ( ٥٤٩ هـ - ٥٥٥ هـ ) وجاء بعده العاضد لدين الله ، وكان فى التاسعة من عمره عندما صار خليفة بمصر

فى أثناء ذلك العصر كان نور الدين قد هزم الفرنج ووجد دولة عظيمة فى الشام والجزيرة . وكان من بين الوزراء بمصر من طمع فى أن يجعل صلة بين دولة نور الدين ، وبين مصر ، وذلك هو الرجل العاقل الصالح ابن رزىك لولا أن اختلاف المذهب الدينى كان حائلا لا يمكن تجاوزه

وكان الصليبيون يعرفون أن مصر بلاد غنية وأنها أسهل فتحا من قلاع الشام وليس بها أمثال نور الدين وجنوده . وكانوا يتطلعون الى أن يقيموا ضعفهم بضمها الى ملكهم ، ولولا خشية نور الدين أن يهوى على بلادهم فى أثناء محاولتهم ذلك الفتح لبدءوا به منذ أخفقوا فى الاستيلاء على دمشق واسترجاع الرها فى حربهم الثانية فى منتصف القرن الثانى عشر

ولقد جرت بمصر حوادث وأراد القائمون بها الانتفاع بالموقف السياسى الذى حولهم ، فكانت النتيجة الطبيعية تنافسا بين الدولتين المجاورتين على أيهما تدخل تلك البلاد وتسود فيها هاتان الدولتان هما : دولة نور الدين ، ودولة الصليبيين

ساد على مصر فى سنة ١١٦٤ ( ٥٦١ هـ ) رجل من العرب

اسمه شاور ، واستبد بأمرها بعد أن قتل العادل رزيك بن الصالح رزيك الوزير الكبير . وقد نازعه في الامر أمير عربي آخر من قبيلة لحم من بلاد الصعيد واسمه ضرغام ، وكان آخر النضال بين الزعيمين أن هرب شاور يلتمس مساعدة من الخارج على خصمه ، فذهب الى نور الدين وعرض عليه شروطا مغرية اذا هو أعانه على استرجاع أمره بمصر ، وكان نور الدين يتطلع الى التدخل في تلك البلاد فسنحت له تلك الفرصة . وكانت شروط شاور أن يعطى لنور الدين نفقات الحملة وثلاث ايراد مصر جزية سنوية . وقد ساعدت الظروف على أن يسرع نور الدين باجابة شاور الى ما سأل لأن ضرغام منذ أحس بسعى شاور أخذ هو من جانبه طريقا آخر يزعم فيه سلامته فأرسل يستعين بالدولة الاخرى دولة الفرنج بالشام ، فلم يتردد نور الدين بعد ذلك بل أرسل جيشا مع شاور ، وجعل عليه مقدم جيشه أسد الدين شيركوه بن شادى ، وجعل معه الشاب الممتاز يوسف بن أخيه أيوب بن شادى

## الفصل الثالث

العصر الأول

من حياة صلاح الدين





## منشؤه وشبابه

يحيط جو من الابهام حول نشأة يوسف بن أيوب ونسبه وذلك شأنه شأن كل رجل ينبغ من صفوف العامة فيبلغ أقصى ذرى العظمة. وقد حاول بعض من كتبوا عنه أن ينسبوا إلى أسرة عريقة وعرق شريف ، ولا يسع الإنسان إلا أن يتسم عندما يرى أمثال هؤلاء المتحمسين من الكتاب يوصلون نسبه إلى معد بن عدنان بل إلى آدم عليه السلام

على أنه لا يغض من قدره أننا لا نستطيع أن نتعدى في نسبه الجد الأول فهو يوسف بن أيوب بن شادي ، وليس بعد شادي من الأسماء ما نقدر على التثبت منه

كان أبوه وأهله من قرية (دوين) في شرق أذربيجان ، وهم من بطن ( الروادية ) من قبيلة ( الهذانية ) وهي قبيلة كبيرة من قبائل الأكراد ، ويظهر أن جده شادي نزع بولديه أيوب (نجم الدين) وشيركوه (أسد الدين) إلى بغداد ثم نزل بتكريت حيث مات شادي . وقد نشأ الأخوان بعد ذلك والتحقا في خدمة متولى الشحنة بالعراق (مجاهد الدين بهروز) الذي كان متوليا من قبل السلطان مسعود بن غياث الدين

محمد بن ملك شاه السلجوقي . ثم انتقل نجم الدين أيوب الى خدمة عماد الدين زنكى صاحب الموصل وصار « حافظ قلعة بعلبك » أو (دردارها) . فلما قتل زنكى انتقل نجم الدين الى خدمة صاحب دمشق والتحق أسد الدين أخوه بخدمة نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى، وهو اذ ذاك صاحب حلب ورثها من دولة أبيه بعد موته . وكان له أخ ورث الموصل وما يليها ، وهو سيف الدين غازى بن زنكى . وفى أثناء تلك الحوادث ولد لنجم الدين ولد سماه يوسف ولعل ولادته كانت فى ليلة خروج أبيه من تكريت الى خدمة عماد الدين زنكى وذلك حوالى ١١٣٨ للميلاد (٥٣٢هـ) . وقد نشأ فى كنف أبيه بدمشق ، وظل أبوه هناك الى أن أوغل نور الدين بفتوحه الى الجنوب واستولى على دمشق فانضم الى خدمته، وكان اذ ذاك يوسف قد ترعرع وصار فتى فى السادسة عشرة من عمره فدخل فى خدمة نور الدين مع أبيه وعمه . وكانت مخايل النجابة ظاهرة عليه ، فكان نور الدين يؤثره ويقربه ، ويلوح أن الفتى كان حاد الذكاء ، له عقل ناقد فأدرك ما فى طبع سيده من كرم وعلو وشهامة وجعل يأخذ نفسه بما اعجبه من صفاته

على أننا لا ننكر أننا لسنا نقدر أن نعرف عن شباب صلاح الدين شيئاً كثيراً ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان أحد صغار الملحقين بالجيش فلم يكن دونه مجال للعمل والظهور الى جانب الكبار من قواد الجيش وشجعانه . وكان جيش نور الدين فى



صورة صلاح الدين الايوبي ( خياليه )

هذا الوقت يحوى جماعة كبيرة من المبرزين الشجعان . وليس يذكر لنا صلاح الدين شيئا عن شبابه الا أنه كان يترحم عليه ويحن اليه وذلك أمر طبيعى لكل كبير السن اذا نظر الى الشبيب وعجزه . وأما غير ذلك فلا نسمع السلطان فيما بعد يذكر عن اعماله شيئا فى وقت صغره ، ويمكن أن نعزو هذا الى حسن بصره وتواضعه فأكبر الظن أنه يأبى أن يذكر لنفسه شيئا فى وقت كان فيه صغيرا بين كبار يجلمهم ويعرف لهم فضلهم ولا نملك النفس عن ذكر حقيقة نراها قد تساعد على أن تظهر الينا صورة ذلك الرجل قريبة من الوضوح ، وذلك أنه قد كان فى شبابه يرتاد مسارح اللهو حيث يرتاد أمثاله من الفتيان . فانه تاب عن الحمر وغير ذلك من اللهو وهو فى مصر بعد أن حمل عبء الوزارة وصار من رجال الامر فخلع عنه ما لا يليق به فى مكانته الجديدة وهل من الغريب ألا يكون الشباب معصوما ؟ وهل ينقص من الرجل أنه كان يتذوق اللهو حلوا فى جهله وسورة شبابه فاذا هو شعر بالواجب وثقله رمى عن نفسه لهوها وفرغ الى واجبه يتذوق حلاوة القيام به بنفس الهزة التى كان يشعر بها فى لهوه ؟ على أنه بقى الى آخر حياته محتفظا بالميل الى لذات أخرى لا عار من أن يصيبها الرجل فقد كان منذ شبابه مفرما بصيد الطباء فى الصحراء وسماع الادب الطريف فى المجالس الحافلة بالاصدقاء أو بالعلماء وأهل الفضل

وكان اول عهده بالعمل الجدى خروجه الى مصر فى صحبة عمه أسد الدين شيركوه فى سنة ١١٦٤ للميلاد ( ٥٥٩ هـ ) وسنه نحو ست وعشرين سنة

## الحملة الى مصر

ذهبت الحملة الاولى الى مصر لمساعدة شاور في ابريل سنة ١١٦٤ م ( ٥٥٩ هـ ) وهزم الجنود الاتراك الذين مع شيركوه جيش ضرغام عند بلبس وسارت الجنود المنصورة الى القاهرة وهناك وجد ضرغام نفسه مخدولا وليس حوله من يثق به او يركن اليه، وتخلي عنه الخليفة الذي كان لا يثبت في جانب وزير مقهور وله في ذلك العذر اذ كان الوزراء أيام قدرتهم لا يرعون له حقاً بل يجعلونه أشبه بالاسير في قصره . وكانت آخره ضرغام على يد شعب القاهرة حين ثار به فاحتز رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة ، وتم النصر لشاور منافسه

على أن شاور بعد ذلك رأى الامر قد تم كما أحب فلم تعد به حاجة الى حلفائه شيركوه ومن معه، وكان قد احتاط لنفسه فجعل جيش شيركوه خارج القاهرة قرب النيل - ولم يتحرك الى الوفاء بما كان قد تعهد به لنور الدين فبدأت مشادة بينه وبين حلفائه السابقين أدت الى أن أنفذ شيركوه ابن أخيه صلاح الدين الى بلبس كي ينزعها لتكون هي واقليم الشرقية في يده رهناً. فأرسل شاور الى (امرى) ملك بيت المقدس (املريك)



يطلب مساعدته على جيش نور الدين ، وكان (امرى)لايستطيع أن يرفض ذلك الطلب اذ كان يتطلع الى امتلاك مصر لا يمنعه الا خوفه من نور الدين ، فلما بلغت دعوة شاور ضمن ان يكون المصريون الى جانبه فأقدم . وهكذا كان شاور يلعب بالنار التى ستحرقه

بقى الجيشان الاجنبيان يتطاحنان قرب بلبيس وكان نور الدين فى أثناء ذلك يهوى بجنوده على أملاك الصليبيين بالشام ، ففتح قلعة ( حارم ) الى غرب ( حلب ) وبهذا صارت انطاكية مهددة باغاراته ، ثم جد فى حصار حصن ( بانياس ) بقرب دمشق فكان على ( امريك ) أن يعود قبل أن يتسع الخرق . وكان شيركوه لايعلم بذلك الانتصار الذى احرزه نور الدين وكانت جيوشه تحارب على قلة من المؤونة ولم يكن له عند بلبيس حلفاء يساعدونه ولا حصن يمنع فيه ، ولهذا سره أن يفتاحه الفرنج بالصلح على أن يخرج هو وهم جميعا من مصر وكان منظر خروج جيش شيركوه من بلبيس فى اكتوبر سنة ١١٦٤ م ( ٥٥٩ هـ ) أشبهه شىء بالنصر ، وذلك إن الجيش سار عن بلبيس وجاء فى آخره أسد الدين شيركوه يحمل فى يده ليا من حديد يحمى ساقاتهم ووقف حول الجيش جمع من مسلمى مصر ومن الفرنج ينظرون اليه وهو يخرج عن البلاد . فقال له أحد الفرنج : « أما تخاف أن يفدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك حتى لاتبقى لك بقية » فأجاب شيركوه

« يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما افعل . كنت والله اضع  
السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجلا وحينئذ  
يقصدهم الملك العادل نور الدين فلا يبقى منهم احدا »

في مثل هذه الحال وفي مثل ذلك الجو المعنوي - بدا صلاح  
الدين اول جولة جدية له في غمار الحياة العملية

مضى بعد ذلك اكثر من عامين كان فيهما شاور سيد الدولة  
بمصر وكان شيركوه في اثناهما يردد امله في العودة الى مصر  
لامتلاكها، وكان يحرض نور الدين بكل وسائل التحريض وهو  
يعلم ان اقرب الحجج الى نفسه ان مصر تساعد في جهاده  
مع اعدائه الفرنج . وكان يسهل له فتحها قائلا : « انها دولة  
بغير رجال » . ولكن يجب الا ننسى ان ثروة مصر ايضا كانت  
من اكبر حجج شيركوه امام نفسه وامام سيده . وكان الخليفة  
العباسي عندما علم بما يقصده شيركوه يساعد على غزو  
مصر بتحريضه ودعواته فان بيت بنى العباس لم ينس  
ان بيت فاطمة في مصر كان منافسا خطيرا ، وان الشيعة  
العلوية بدعة يجب ان تزول فلا يبقى على الارض الا السنة  
واتباعها

وقد كان نور الدين يتردد في انفاذ تلك الحملة التي يحرضه  
شيركوه على ارسالها . ولكنه علم ان الصليبيين على نية  
غزو مصر ، فجعله ذلك يصمم على ارسال تلك الحملة ، على  
الرغم من ان جيشه لم يكن كبيرا ، فقد كان نصف  
عسدد اول فرقة انفلها عمر بن الخطيب الى مصر

اذ كانوا لا يزيدون على ألفى رجل على الاصح ، ولو أن الفرنج  
يبالغون في عدد ذلك الجيش . على أنهم كانوا ألفين من فرسان  
أبطال ، وكان صلاح الدين مع عمه هذه المرة أيضا



سارت الكتيبة في اوائل سنة ١١٦٧ م ( ٥٦٢ هـ ) الى  
شرق النيل عند اطفيح ، وعبرت الى البر الغربى من هناك  
فأقبل ( أمرى ) بجيش كبير من الشام وانضم الى جيش  
شاور ، وكان عدد جنوده من الفرنج والمصريين معا أكثر بكثير  
من عدد جيش شيركوه ولو أن الفرنج يدعون أنهم لم يكونوا  
في كثرة

بعد حين كان الجيشان أحدهما عند القسطنطين وهو  
جيش مصر وحلفائها الفرنج . والآخر وهو جيش الاتراك  
( شيركوه ) عند الجزيرة في البر الغربى . ومضت فترة انتظار  
كان فيها الصليبيون يستوثقون لانفسهم بمعاهدة أمضاها  
الخليفة العاضد بنفسه ، وحلف عليها على أن يعطى الفرنج  
مائتى ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ثمنا لمساعدتهم (١)

---

(١) جاء فى كتاب صلاح الدين ستانلى لين بول :  
« أخير هيو حاكم قيصرية وجوفرى فارس المعبد رسلا من الملك (أمرى) وقد  
سار بهم الوزير بنفسه وجعل يقتحم بهم كل رسوم الاوضاع السرية ، فسار بهم  
فى ممرات خفية وأبواب عليها حراس من أقوياء السودان وكانوا يحيونهم  
بسيوفهم المجردة حتى بلغوا صحنا فسيحا لا سقف له الا السماء وحوله  
أقبة قائمة على عمد من الرخام ، وكان السقف المزخرف مرصعا بالذهب مزينا  
ببديع الالوان واما الارض فكانت من القسيفاء البديعة ، وقد أخذت تلك  
الناظر بعيون الفارسين الذين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال ،  
فكانا يريان هنا قوارة من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التى ليس مثلها =

بعد ذلك عبر جيش الفرنج والمصريين الى الغرب على غرة  
من شيركوه فاضطر هذا ان يتقهقر الى الجنوب حتى بلغ  
( البابين ) في جنوب المنيا وهناك على حافة السهل الغربية من  
قبل الصحراء وقف شيركوه بأصحابه واستعد للحرب رغم  
نصح بعض قواده الا يفعل . وبدأت الموقعة العظيمة في ١٨  
ابريل سنة ١١٦٧ م . وكانت خطة شيركوه ان يجعل صلاح  
الدين في القلب - فيظن اعداؤه انه هو شيركوه الذي في القلب  
حسب العادة المتبعة اذ كان القلب عادة يوضع تحت قيادة  
رئيس الجيش ، وتوقع شيركوه بذلك ان يكون القلب اول  
ما يتعرض لهجوم العدو . واما هو فقد اختار جماعة من

---

= في بلاد الغرب ثم يريان هناك أنواعا من الحيوان لامثيل لها الا ان يصور  
الوانها مصور بارع او يخترع صورتها شاعر ماهر او يحلم بها حالم في عالم  
الخيال وهكذا كانا يريان اشياء لا يريان مثلها في بلادهما اذ هي مما لا يوجد  
الا في بلاد الشرق والجنوب

وبعد سير طويل في تعاريج وتلافيف وصلا الى مكان العرش فأعلن قدومها  
عدد عظيم من الحشم يلبسون حلا بهية ، ثم تقدم الوزير خالعا سيفه وقبل  
الارض ثلاث مرات كأنما يسجد لله ثم اعقب ذلك ان انكشفت الستائر الثقيلة  
فجأة وهي تلمع بما عليها من ذهب ولؤلؤ ، ولاح من خلفها الخليفة وعليه  
حلل وزينة تزدى بما يتحلى به الملوك

فقدم اليه الوزير بنخشوع الرسولين الفارسين وبين بصوت منخفض ماكانت  
فيه البلاد من الخطر وماكان من شأن صداقة ملك بيت المقدس له ، وكان الخليفة  
شابا أسمر اللون قد خطا الخطوات الاولى خارجا من عهد الصبا ، فقال  
انه يرغب ان يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولكنه  
تردد في ان يمد يده عند ما طلب الرسول منه ان يمد يده دليلا على صدق  
مهده وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب غير ان الخليفة مد يده بعد  
قليل الى السر هيو ، ولكن هذا وجد عليها قفازا فقال : « مولاي ان الحق  
لا غطاء له وان كل شيء مكشوف في عهود الامراء » فتبسم الخليفة برغمه  
وخلع قفازه كارها ثم مد يده الى هيو وحلف اليمين على انفاذ المعاهدة  
بصدق واخلاص

ابطاله المجريين وجعل منهم الجناح الايمن وامر صلاح الدين اذا هو هوجم ان يتقهقر في نظام ولا يثبت ثبوتا جديا حتى يفتر الفرنج ويتبعوه - وهكذا كان ما توقع فان كتلة جيش مصر والفرنج صدمت القلب صدمة قوية فتقهقر صلاح الدين بنظام وثبات ، فتبعه الفرنج وعند ذلك هبط شيركوه بالجناح الايمن على جيش المصريين فحطمه حتى اذا ما عاد الفرنج من تتبع القلب وجدوا حلفاءهم منهزمين . فاتبعوهم منهزمين كذلك - على ان شيركوه لم يتبع اعداءه ولعل ذلك راجع الى قلة عدد جيشه فآثر ان يذهب الى الاسكندرية وقد تمكن من اخذها بمساعدة اهلها ، وترك بها صلاح الدين بنصف الجيش وعاد هو الى الصعيد يجبي الاموال

وهناك في الاسكندرية ظهر ذكاء صلاح الدين وتكشفت مواهبه في الحرب وكيدها وبدا منه ذلك الثبات وذلك السلطان على النفوس وتلك القوة التي ميزت خلقه في حياته المقبلة عاد المصريون والفرنج بعد ان جمعوا امرهم واصلحوا ما افسدته الهزيمة الى الاسكندرية فحاصروها من جهة البر على حين كان اسطول الصليبيين يهاجم المدينة من جهة البحر . وقد استمر الحصار نحو شهرين ونصف شهر وتنفذت الاقوات ، ولم يكن بالناس من اطمئنان على تلك الحال من الحصار وكان صلاح الدين في قلة من الجنود لا يستطيع غير ان يبث مافي نفسه من ثبات في قلوب من في المدينة من تجار وصناع وعامة ، فكان حينئذ يقدوم شيركوه





بالزاد والثروة ، وحينما يخيفهم ايقاع الفرنج وقسوتهم ،  
وحيثما يرغبهم في الصبر والثبات في سبيل نصر الدين على  
اعداء ملة محمد ، وكان في الوقت نفسه ينفذ الرسل الى  
عمه يشكو اليه ما هو فيه من مشقة وعناء من اعدائه واصحابه  
على السواء ، واخيرا جاءت البشرى بقدم اسد الدين من  
الصعيد الى القاهرة وحصاره لها . وعند ذلك رأى «امرى»  
ان النصر غير ممكن فاتفق مع شيركوه على ان تخلي  
الاسكندرية ، وان يخرج الجيشان جميعا من مصر وان يأخذ  
شيركوه كل ما استولى عليه من الاموال ويزيد عليه خمسين  
ألف دينار ، وهكذا انتهى دور الحرب الثانى على بقاء مصر  
خالصة لشاور . ولعله تبسم اذ ذاك وفرك يديه مهنثا نفسه  
عندما رأى نجاح لعبه بالقوتين العظيمتين قوة الصليبيين وقوة  
الأتراك وبقائه سالما بين تنافسهما ، ولكن مثل هذا السلاح  
سلاح الخداع والحيلة قد يرتد على من يستعمله فيقتله ،  
ولا شك ان صلاح الدين حمل لشاور في تلك المرة كثيرا من  
الكره ممزوجا بالاحتقار اذ أدرك حقيقته .



لم يقم الفرنج بما تعهدوا به فأبقوا منهم حراسا على ابواب  
القاهرة ، وضربوا على مصر جزية نحو مائة ألف دينار كل عام  
وكانوا يطمعون في أكثر من هذا أى انهم كانوا لا يرضون بأقل  
من ملك مصر بعد أن عرفوا من ضعفها أكثر مما عرفه شيركوه  
وقد عادت جيوشهم بعد نحو عام من معااهدتهم لغزو

مصر - وكان عزمهم هذه المرة عزم من لا يريد هواناً ، غير ان شاور اظهر من المقاومة ما لم يكن منتظرا منه فأحرق الفسطاط حتى لا تكون غنيمة لاعدائه الذين كانوا حلفاءه بالامس ، ومنذ ذلك الوقت ذهبت اول عاصمة اسلامية لمصر ولم يرجع اليها بعد ذلك شيء من روائها القديم اذ ظلت النيران تأكلها اكثر من خمسين يوما

وكان جماعة من المصريين الذين حول الخليفة العاضد والذين كانوا اعداء شاور يرسلون نورالدين لكي يأتي لمساعدة مصر على اعدائها ، وكان نور الدين يميل الى التدخل بطبيعة الامر ، فما هو الا ان ارسل اليه العاضد يستنجد به حتى اخذ يعد جيشا لغزو مصر وكانت الشروط التي وعد بها العاضد شروطا لا تبررها الا الضرورة القصوى التي كانت بها مصر فقد وعد نور الدين بثلاث ارض مصر وابقاء جيش احتلال مع شركوه فيها وأن يقطع الجنود ارضا خارجة عن ثلث البلاد الموعود به لنور الدين

اما شاور فانه لم ينس ان يلجأ الى الحيلة منذ رأى نفسه بين عدوين لاحظ له مع ايهما ، فأحب ان يعمل على صرف الفرنج عن البلاد بالمال ، فجعل يفاوضهم حتى اتفق معهم على ألف ألف دينار يعطيها لهم ليرحلوا عنه ، وعجل لهم منها مائة ألف ولكنه لم يستطع أن يحمل اليهم سائر المال

وبينما هو كذلك ازاء اعدائه الفرنج كان نورالدين وشركوه يسرعان في الاستعداد حتى اتماه وسار جيش من ستة

آلاف بينهم كثيرون من الامراء النابهين وفيهم صلاح الدين  
الذى سار مع الجيش على كره منه بعد الحاح عمه وتكرر طلب  
نور الدين ، ويظهر ان صلاح الدين كان غير راض عن الاشتراك  
فى غزو هذه المرة لما شهدته فى الحرب الماضية من الشدة  
لاسيما فى الاسكندرية . ولكنه على اى حال سار مع  
الجيش وكان الجميع فى مصر فى اوائل يناير سنة ١١٦٩ م  
٥٦٤ هـ وكان « امرى » ملك الفرنج عند وصول جيش نور  
الدين واقفا يستنجز شاور وعده فى المال المتفق عليه ، فلما  
اتى جيش نور الدين ورأى « امرى » موقفه الحرج وهو بين  
شاور من جهة والجيش الاسلامى المغير من جهة اخرى لم  
يستطع البقاء فعاد الى الشام بغير ان يصطدم بالجيش القادم  
وبقى شركوه وحده بمصر وكان الخليفة العاضد ظاهر الفرح  
به فأكرمه وخلع عليه ، واما شاور فلم يكن راضيا عن وجود  
ذلك الجيش القوى على كذب منه ، غير انه كظم غيظه العظيم  
ولم يظهر شيئا منه خوفا وعجزا ، وجعل يماطل فى انفاذ  
الشروط التى اتفق عليها العاضد ونور الدين، وجعل يظهر اللين  
لكى يخلص من عبء ذلك التعهد الثقيل ، وكان يريد ان  
يستميل شركوه بالملق والمداهنة بل لعله كان يفكر فى ان يوقع  
به لولا مقاومة ابنه لذلك الراى



راى شركوه مماطلته ويلوح انه كان يميل الى التساهل  
قليلا ، ولكن كان هناك من يكره ذلك الرجل المخادع ويحتقره

ويستشف الخيانة من وراء لين ظاهره - وذلك هو صلاح الدين . فقاتح عمه في القبض على ذلك الثعبان فلم يرض شيركوه - فعزم هو على أن يأخذ الامر في يده . وفي ذات يوم خرج شاور على عادته الى معسكر الجيش التركى خارج القاهرة فلم يجد شيركوه ، وقيل له انه خرج لزيارة قبر الامام الشافعى فرأى شاور ان يذهب اليه هناك . وفي اثناء سيره قرب منه صلاح الدين ومعه عز الدين جورديك احد أمراء الجند وقبضا عليه فأنزلاه الى الارض وقيدها، وتفرق اصحابه عنه ووضع في خيمة وحده - وما هو الا ان بلغ نبا القبض عليه لخليفته العاضد حتى ارسل يلح في طلب راسه - فأطيع امر الخليفة . وهكذا ذهب رجل كان يلعب بأمر مصر ست سنين ونيفا وانتهى كل مكره الذى كان يدل به بدخول جيش نور الدين واستيلائه على البلاد

وقد كان من الممكن ان نمر على هذا الموقف مروراً سريعاً فليس به ما يستحق ان نقف عنده لعبرة او مناقشة ، ولكن حرصنا على اظهار حقيقة نفس صلاح الدين كما هى تجعلنا نسائل النفس : هل هناك فى عمله بشأن شاور ما يؤخذ عليه؟ لقد قبض على الرجل وقيده حتى جاء امر الخليفة العاضد بقتله . ولعله كان ذا يد فى انفاذ امر العاضد - او لعله على الاقل حبذ ذلك الامر وسر له

الم يكن ذلك غدرا من صلاح الدين فى أوله وقسوة فى آخره ؟ انا لا نستطيع ان ننسى شخص شاور اذا أردنا مناقشة هذا

الرأى فقد كان صلاح الدين يحمل في نفسه عنه رأيا سيئا منذ الحملتين الاولى والثانية ، اذ عرف لين ملمسه وخبث نيته وضعف نفسه الذى يغطى عليه بمكره . وقد انكشف له جشعه الذى كان يحاول اقناعه مضحيا بالدماء الغزيرة من اصحابه ومنافسيه على السواء . فهل عجيب مع ذلك ان يكره صلاح الدين مثل هذا الرجل ويسعى في تطهير مصر منه ؟ اليس من الطبيعى ان تخزه تلك البسمات التى كان يراها على وجهه المخادع وهو يعلم ما انطوى تحتها ؟ واذا هو رآى مماطلته ومداهنته اليس من المتوقع ان تثور نفسه الحرة الصريحة التى غذاها هواء الجبال والصحراء ، ولم تعرف الا الحقيقة الصارمة في ميادين الموت التى كان يخوضها ؟ واذا هو سمع الاشاعات عن نية ذلك الرجل الغدر بعمه اسدالدين ، اما كان واجبه ان يتخذ الحيلة منه ، وهو من يعرف عنه الخبث والغدر ؟ حقا لقد احتقر شركوه ان يؤاخذ شاور بما يشاع عنه وتكبر ان يابه بالخطر الذى كان يهدده من ناحيته فكان في ذلك مثله مثل من يرى الحية تريد ان تنهشه فلا يرضى لها الا عقب نعله يدفع به عن نفسه امامها ، ولكن شجاعة شركوه وكبره شيء وعدالة موقف صلاح الدين شيء آخر ، فقد اخذته الحفيظة فعزم على ان يوقف ذلك المرائى عند حده . فأسره مع جماعة من اخوانه ، ولكنه لم يقتله . فاذا كان قتله ذنبا فالذنب اذن على الخليفة العاضد الذى الح في قتله وامر به غير مرة . على أن صلاح الدين لو قتله لما

كان آثما ولا معتديا — فان شاور رجل قل ان تجد في التاريخ من استحق القتل مثله ، ولا من يكون قاتله اشد رضاء عن نفسه ، واسلم من تأنيب الضمير والندم . فهو رجل اثار حربا من اجل الوزارة بمصر ويعد ان نصره جيش قتل من قتل من رجاله وابطاله رجع يغدر به ويستنصر عليه بعدوه . وقد كان من الممكن ان يرضى الانسان عن خطة شاور لو انه اتخذ لنفسه جانبا وسار مخلصا فيه الى غايته ولكنه كان مثل اللاعب فوق الحبل يميل تارة هنا وتارة هناك يحاول ان يحفظ نفسه فوق مكانه الدقيق . فاذا نحن اردنا الحكم عليه وعلى خطته كان لابد لنا ان نقر له بالمهارة في الانتفاع بمن حوله ومقدرته على التقلب مع الظروف والاحوال ، ولكن ذلك كل ما يمكننا ان نقوله عنه فقد كان مشلا للسوء في تعامله وتعهدده ونيته . ولقد كان صلاح الدين باشتراكه في اسره آله من آلات العدالة الالهية



وقد اختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور اسد الدين شيركوه ليكون وزيرا محله وبالف في اكرامه وخلع عليه وسماه الملك المتصور، وجعله قائد قواده وامير جيوشه ، غير ان الاجل لم يمهل له ليتمتع بمجد الدنيا الزائل اكثر من شهرين وخمسة ايام ، وقد كان جديرا بمصر وملكها لانه في الواقع اكبر من دفع على غزوها واليه اكبر الفضل في فتحها . وقد قيل مات من الخناق من وراء تخمة اذ كان كثير الاكل وهو اقرب الآراء

الى التصديق وقيل مات من حلة مسمومة - وما احرانا ان نلحق ذلك القول الاخير بأمثاله في اقايصص الشرق فما زال الخيال الشرقى ميالا الى ان يحيط ابطاله بالاسرار والخفايا

وعند موت شيركوه كان في الجيش جماعة من كبار الامراء وكان المتوقع ان يختار احدهم وزيرا بعد شيركوه فما كان من الممكن ان يتجاهل الخليفة العاضد وجود ذلك الجيش المحتل في بلاده . وكانت المظاهر كلها تدل على ان خليفة مصر ورجاله يحبون الابقاء على مساعدة جيش نور الدين خوفا من تدخل الصليبيين ، فقد كانوا يرون انه اذا كان لابد من احتلال اجنبى فليكن ذلك الجيش من المسلمين . ولهذا كان المنتظر ان يختار العاضد وزيرا له من كبار امراء الجيش النورى ، ولكن حدث ما لم يكن منتظرا فان السياسة المصرية اذ ذاك كانت لا تنسى ان تلجأ الى الدهاء في مقابلة المصاعب الكثيرة التى كانت غير قادرة على حلها في ميدان الصراحة والقوة ، ولهذا عمد الخليفة العاضد الى حيلة يحسبها تضمن له مساعدة جيش نور الدين مع امن شره واتقاء استبداده فجرى على عادة المصريين في تفضيل الاصاغر لكى يكونوا اسهل قيادا . فتخطى الامراء الكبار في الجيش واختار للوزارة ذلك الشاب الذى كان مظنة اللين والسهولة ، وهو صلاح الدين فقد رأى الخليفة فيه ماضنه ضعفا واستكانة لما كان عليه من الحياء والاعتزال وقلة التظاهر ، ولو كان الخليفة ورجاله انفذ نظرا واعمق فكرا لعرفوا ان تلك المظاهر



انما تخفى نفسا كبيرة تواقه. اذ انه لم يكن سوى ذلك الجندي  
الشجاع الذى ابلى بلاءه فى موقعة البابين ، وذلك القائد القادر  
الذى دافع عن الاسكندرية دفاعه المجيد مع حداثة سنه  
وشدة الظروف التى حوله . على ان الامور جرت بقدر ، وكان  
خطأ الخليفة العاضد ورجاله من حسن حظ مصر والاسلام  
فأصبح صلاح الدين وزيرا لمصر وأميرا لجيوشها



## وزارة صلاح الدين

لم تكن بصلاح الدين رغبة في الوزارة فقد كان يرى حرج موقفه فيها ويعلم انه لابد يلقى فيها متاعب ومصاعب قدونه أمور سياسة الدولة وأى دولة ؟ انها مصر التى يتطاحن عليها جماعة من المستوزرين من الداخل يريدون السلطة ، وجماعة من الصليبيين من الخارج لا يدعونها سائلة ! وكان كذلك يستشف كراهة الامراء الكبار لتوليته ، ولم تكن نفسه من تلك النفوس الجشعة التى اذا لوح لها بالمجد طارت اليه طائشة ، بل لعله كان يرى من نفسه غنى عن ذلك المجد بما يشعر به في نفسه من عظمة

ولهذا نعلم انه تردد كثيرا حتى رضى بعد لآى ان يكون عند اختيار الخليفة فذهب الى القصر ، وخلعت عليه خلع الوزارة « من جبة وعمامة وغيرهما » ولقب بالملك الناصر

ولسنا نجد غرابة في انه قبل الوزارة بعد امتناع فانه فكر في نفسه وفيمن حوله فلم يشعر بما يجعله يظن في غيره قوة ليست عنده ، ورأى أمورا معوجة طمع ان يكون له فضل اصلاحها ولعل آمالا اشرقت في نفسه عندما رأى صغر نفوس

رجال الدولة التي أمامه فأقدم وهو يشعر بثقل الأمانة وصعوبة المرتقى

كان اختياره مغضبا لكبار الأمراء كما توقع فلم يابثوا به واعتزلوه حتى سعى بينه وبينهم رجل من رجال الدين والسيف معا وهو البطل الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري فأقنعهم بأن يظلوا على الولاء له حتى قبلوا جميعا إلا جماعة أكبرهم عين الدولة الياروقي فإنه خالف، وعاد مع جماعته إلى الشام وبقي صلاح الدين بمصر ليقابل أمورها واحدا فواحدا .

ولسنا نسمع بعد ذلك عن خلاف بينه وبين الأمراء الذين رضوا بالخضوع له ، فلم يظن أحد منهم أنه خضع لغير شريف، أو اذل في ذلك الخضوع ، وقد رضى نور الدين عن ذلك الاختيار وفرح به وصار يرسل إليه في مخاطباته ( إلى الأمير الأسفهلار ) وذلك لقب معناه « الأمير الحاكم » كان يطلق في ذلك الوقت على كبار القواد

ولكن إذا كان صلاح الدين قد أمن جانب من معه من الأمراء فإنه لم يأمن جانب الياروقي ومن معه في الشام وهم يرقبون منافسهم الفتى عن بعد



وبعد أن صارت الوزارة إلى صلاح الدين ، امتنع عن اللهو والخمر واستشعر الجد في كل أعماله وأخذ جوهره يظهر صافيا خالصا . وكان من أكبر الصفات التي ظهرت فيه كرمه في البذل لمن معه وتعفقه عن أن ينال لنفسه شيئا

ولعله شعر أنه محتاج الى أمناء أوفياء لا يداخله شك فى امرهم، فأرسل يطلب من نور الدين أن يبعث اليه أباه وأخوته فأرسلهم اليه بعد أن استوثق منهم أن يطيعوه ، ولم يدر نور الدين أن ذلك القتي الناشئ لم يكن فى حاجة الى ذلك الاستيثاق فقد كان له من عظمة نفسه ما يجعل من معه يخضع له راضيا . وهكذا كان فلم تمض على وزارته ستة أشهر حتى كان كل من معه من الامراء والاهل خاضعا محبا لسيادته فى آن واحد

ولعله من المفيد أن نقول أن سنه وقت أن تولى الوزارة لم تكن بأزيد من واحد وثلاثين عاما

وكانت الامور التى شغلته منذ تولى الحكم بعضها فى الداخل، وبعضها من الخارج، وكان الداخل اول ما استوجب منه العمل وذلك أنه بعد وزارته بأربعة أشهر شعر رجال القصر أنهم بازاء رجل ذى بأس وليس كما ظنوه ضعيفا، فأخذوا يدسون له وكان رئيسهم خصيا أسود (مؤتمن الدولة) فبدءوا يرأسلون الفرنج سائرين على سنة شاور ، فعلم صلاح الدين بالامر وكتبه حتى رأى فرصة فى مؤتمن الدولة فقبض عليه، وقتله فتعصب له الجند السودان حراس القصر وثاروا بصلاح الدين، ولكنه كان مستعدا فأوقع بهم بين القصرين ولم ينبج منهم الا القليل الشريد . ومنذ ذلك الحين جعل على القصر خصيا أبيض من رجاله وهو بهاء الدين (قراقوش)



لم يمض زمن طويل بعد تلك الثورة حتى واجهته أخطار من وراء البحر فجاءت أساطيل الدولة الرومانية الشرقية

والفرنجة لحصار دمياط في عدة كبيرة اذ بلغت سفنهم نيفا ومائتين ولعلمهم حسبوا ان خلو مصر من شركوه يجعلها سهلة الفتح . فأظهر صلاح الدين انه يقدر على كثير في غير جلبة فأرسل العسكر والذخيرة الى دمياط بالنيل ومكنها بذلك من مقاومة هجمات المغيرين العنيفة وأرسل في الوقت عينه الى نور الدين يذكر له الحال ويطلب منه المعونة ثم لم يتوان في الامر فذهب في جيش الى دمياط ليشغل المحاصرين عن فتح المدينة . وقد أسعفه نور الدين كعادته اذا جد الجدد فأرسل اليه البعوث ارسالا يتلو بعضها بعضا ثم أهوى هو في الشام على بلاد الفرنجة فنهب فيها وخرب فاضطر المهاجمون الصليبيون ان يرفعوا حصار دمياط ويعودوا الى الشام ليحموه من هجمات نور الدين بعد خمسين يوما من الحصار ، وكانت سياسة صلاح الدين الداخلية عاملا من عوامل الاطمئنان والوفاق في مصر حتى ان الخليفة العاضد لم يضيق به كما كان يضيق بمن سبقه من الوزراء ولم يفرح بهجوم الصليبيين هذه المرة ولم يستعن بهم بل أرسل الى صلاح الدين كثيرا من المال والذخيرة حتى لقد قدر صلاح الدين نفسه ما أرسله العاضد اليه بمقدار مليون من الدنانير المصرية . نذكر ذلك تشريفا لأخسر خلفاء الفاطميين في مصر

## انقراض الدولة الفاطمية

بقيت الدولة الفاطمية بمصر نحو قرنين وهى تحاول بسط سلطانها على ما جاورها من البلاد وكان امتداد ملكها انقاصا من سلطان دولة العباسيين

وظلت الدولتان متنافستين تعلو كفة العباسية مرة وكفة الفاطمية مرة الى أن جاءت الدولة السلجوقية كما سبق القول وكانت الدولة الفاطمية قد اضمحل أمرها منذ أن مضى أوائلها العظام

على أننا لانستطيع أن نعرف على وجه البت هل كان لوجود هذه الدولة العلوية فى مصر قرنين أثر فى عقائد أهلها • فان كل الظواهر تدل على أنه لم تكن هناك رسوم دينية خاصة تخالف أساس ما اعتاد أهل السنة فى عباداتهم ومعاملاتهم • فانه ان كان ثمة شىء من ذلك فهو شىء من الزخرف والزينة والابهة فى رسوم الدين ولم يكن على ما يظهر اختلاف فى أساس العقيدة فلم يكن خلفاء دولة الفاطميين من غلاة الشيعة ولم تكن لهم تلك العقائد الغريبة السرية التى تميز الشيعة فى الاقاليم الاخرى • أما الزخرف الذى ذكرناه فى رسوم الدين بمصر فلم ينكره أحد وقديما كانت مصر تميل الى

الزخارف فى رسوم الدين وليس بأس من ذلك ما دام لا يمس العقيدة . ولعل طبيعة ارض مصر الوادعة وطبيعة أهلها الميالين الى المرح والبسطة والسهولة الذين يقدرّون الجمال ويحبّونه - لعل كل ذلك حبيب الى نفوسهم ما كان للدولة من تكلف فى الدين وأبهة وزينة فى الحفلات . وأما العبادات والمعاملات بحسب القانون الدينى فاننا لا نجد ما يدل على أن دولة الفاطميين قد أحدثت فىهما تغييرا يذكر

ولم يكن بالمصريين كره للدولة الفاطمية على أنه لم يكن بهم كذلك ميل الى التضحية بشيء فى سبيلها كما هى عادة الدولة اذا كان حكمها فى يد طائفة معينة دون جمهور الشعب . وكان الشعب المصرى يرى فى كثير من الاحيان لا سيما فى الايام الاخيرة ظلما وضعفا من جانب الدولة ولكنه كان دائما يميز بين الوزارة صاحبة القوة فيحقق عليها وبين الخلافة صاحبة الامر الاعلى ويعلم انها لا حول لها ولا قوة ولهذا كان يعطف عليها ، فعندما أبصر الشعب صلاح الدين على الوزارة ورأى كرمه فى البذل وتصرفه فى الدفاع وقوته فى الحرب أعجب به وأحبه والتف حوله . وكان صلاح الدين منذ أخذ الوزارة فى يده يسعى لتوطيد أمره بأن يجعل الشعب يثق به ويلتف حوله . ولكنه أثر ألا يصدمه بتغيير فجائى فبدأ ينشئ المدارس السنية على مذهب الامام الشافعى وعارض سيده نور الدين فى أمر القضاء على الحكم الشيعى من أول الامر اذ كان نور الدين يحب أن يبدأ بإزالة الخلافة الفاطمية عند أول دخول جيشه



مصر فراجعته صلاح الدين مظهرا ما قد ينتج عن مثل هذا  
الانقلاب الفجائي

الا أن الحاح نور الدين في قطع الخطبة العلوية بمصر جعله  
يفكر كيف يعمل فاستشار أصحابه فانقسموا في الرأي بين  
محبذ ومنكر واتفق بعد ذلك أن مرض العاضد واحتجب في  
قصره فرأى الوزير الفرصة ممكنة فجرب قطع الخطبة من أحد  
المساجد وقام بالخطبة للخليفة العباسي رجل أعجمي يعرف  
(بالامير العالم) فلم يحدث استنكار من جانب الناس فأمر  
صلاح الدين الخطباء جميعا أن يقطعوا خطبة العاضد ففعلوا  
وتم الانقلاب بدون حدوث شيء . وقد أول جماعة تردد صلاح  
الدين بأنه كان يرغب في بقاء الخطبة للعاضد خوفا من نور  
الدين . ولا حاجة بنا الى الوقوف هنا لرد هذا الزعم اذ لانجد  
حجة هذه الجماعة جديرة بالتنفيذ . فان الحكمة السياسية  
وحدها كانت تقضى عليه بسلوك ما سلك من طريق التريث

أرسلت البشائر الى نور الدين وبغداد وازينت عاصمة  
الخلافة العباسية وأرسلت الخلع من الخليفة العباسي الى نور  
الدين وصلاح الدين وأصبح في الشرق كله خليفة واحد من  
بنى العباس لا ينازعه أحد ينتمى الى ذلك البيت الجليل بيت  
بنى هاشم

وقد حدث أن العاضد في أثناء مرضه أرسل يستدعي صلاح  
الدين فخاف صلاح الدين أن يلبي دعوته وظنها خدعة ومؤامرة على  
عادة المصريين . ولكنه عرف فيما بعد أن العاضد كان مخلصا

فى طلبه فندم على ذلك اذ كان لا يرى من ذلك الشاب الخليفة  
الا كل ما يرضيه من حب ومساعدة واخلاص . وقد كان من  
حسن حظ العاضد أنه لم يعرف ما حدث من الانقلاب فقد توفى  
من مرضه فى سبتمبر سنة ١١٧١ م - ٥٦٧ هـ . ولم يعلمه احد  
بأن الخلافة نزلت عنه بعد ان لبثت اكثر من قرنين ونصف  
قرن فى بيته منذ كان فى شمال أفريقية قبل هبوطه مصر

وهنا فلنسكت عما كان فى قصر الخليفة من تحف ثمينة  
وآثار قيمة وكتب نفيسة وآلاف العبيد والأماء والثروة  
الطائلة . ولنكتف بان نقول ان صلاح الدين لم يأخذ من كل  
ذلك شيئا لنفسه بل ذهب كله لرجال الجيش والامراء الذين  
معه حتى القصر نفسه ، وبقي الوزير العظيم مقيما حيث كان  
فى خشونة من العيش وسذاجة من الحياة تقرب من حياة  
الزاهد



## الوحشة

### بين نور الدين وصلاح الدين

نحن مضطرون أن نقف قليلا تناقش تهمة يوجهها كثير من المؤرخين الى صلاح الدين وهى انه منذ شعر بثبات مكانه فى مصر أثار وحشة بينه وبين سيده وعزم على الخروج عليه ومحاربته اذا دعا الامر . وما كان للانسان أن يتهم حتى يكون عنده الدليل القاطع . واتهام صلاح الدين بالخروج على نور الدين واثارة الوحشة بينه وبين سيده الذى يجله والذى كان له عليه فضل التربية والعناية والتشجيع اتهام خطير يجب على من يسوقه أن يكون من أشد الناس احتراسا فى قوله ولهذا نؤثر أن نذكر تهم المؤرخين ثم نرى مقدار قوتها على ضوء المنطق ودلالة التاريخ وهذه هى التهم التى تساق :

(١) بعد القضاء على الدولة الفاطمية سار صلاح الدين سنة ١١٧١ م - ٥٦٧ هـ . راغبا فى حرب الفرنج فحاصر حصن الشوبك بفلسطين على مسيرة يوم من الكرك فعلم نور الدين بتلك الحرب فرغب فى مساعدة صلاح الدين فسار من دمشق نحوه وكان صلاح الدين قد أوشك أن يأخذ الحصن من الفرنج فلما علم بمسير نور الدين تركه ورجع الى مصر وكتب الى نور الدين يعتذر له باختلال الامور فى مصر فلم يقبل نور الدين

ذلك الاعتذار وعزم على المسير الى مصر واخراج ذلك المتمرّد عنها . فجمع صلاح الدين أهله وفيهم أبوه وخاله ومعهم سائر الامراء واستشارهم ، فقال قائل : «نمتنع عليه ونحاربه» . فقام نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين وقال قولاً معناه أنه لا يوافق وأنه أول من يطيع نور الدين ويعصى ابنه اذا خرج عليه ! وانفض المجلس على نصيحة أيوب أن يرسل صلاح الدين الى نور الدين يستميله ويطلب عفوه ويدعنه له ويظهر الخضوع ثم لما خلا أيوب بابنه ، قال له : « ما كان ينبغي أن تصنع ما صنعت فان الاخبار لاشك تبلغ نور الدين » ثم قال له : « الا فاعلم أننا لا نسلم البلاد له ولو أراد قصبه من قصب السكر لحاربناه عليها »

(٢) بناء على المفاوضة بين صلاح الدين ونور الدين استقر الامر أخيراً على أن يقصد الاثنان حصن الكرك ويحارباه هناك معا فلما كانت السنة التالية (أوائل سنة ١١٧٣) ذهب صلاح الدين وحاصر الحصن فلما بلغه مجيء نور الدين رجع ورفع الحصار عنه وعاد الى مصر وأرسل الفقيه عيسى الهكاري يعتذر لنور الدين بأنه ترك أباد في مصر على مرض وأنه يخشى أن يموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل مع الفقيه من الهدايا والتحف ما يجلب عن الوصف . فلم يقتنع نور الدين بذلك الاعتذار واستوحش باطنا ولكنه لم يظهر شيئاً من تأثيره

(٣) ما بين غزوة الشوبك سنة ١١٧١م - ٥٦٧ هـ . وغزوة الكرك في اوائل سنة ١١٧٣م - ٥٦٩ هـ . ارسل صلاح

الدين اخاه الاكبر شمس الدولة توران شاه ليفتح النوبة لى  
تكون لهم موئلا يلجأون اليه اذا اجلاهم نور الدين عن مصر ،  
ولكن تلك الحملة لم تنجح لانها وجدت البلاد صحراء لاتغنى  
(٤) بعد غزوة الكرك فى سنة ١١٧٣م - ٥٦٩هـ . لما  
راى صلاح الدين ان النوبة لاتغنى احب فتح ملجأ آخر فارسل  
يستأذن نور الدين فى فتح اليمن « فاذن له نور الدين »  
فذهب اخوه شمس الدين توران شاه اليها وفتحها ونظم  
احوالها واصلح شؤونها واستقام امر الايوبيين بها نحو  
خمسین سنة

هكذا يصور كثير من المؤرخين موقف صلاح الدين بازاء  
سيده وحقا ان فى الحوادث التى يذكرونها كثيرا من الحقيقة  
ولكن تأويلهم فى ظننا تأويل لا تبرره الظروف ولا يقبله العقل  
وما كان لنا ان نكذب تأويلهم لولا اننا نرى ان الادلة كلها تشير  
الى ان ذلك التأويل صادر عن الخيال لا عن الحقيقة . فهناك  
الادلة المادية التى تظهر تأويلا غير هذا وهناك ما نعلمه من  
صلاح الدين وخلقه ما ينفى ان الامر الواقع كان كذلك



هنا امر يستوقف النظر وهو ان المؤرخين الذين يذكرون  
تلك الامور يتفقون فى ايرادها وفى كثير من الاحيان تتفق  
الفاظهم مع اختلاف فى الایجاز والاطناب وهذا ما يجعلنا نظن  
ان مصدر القصة واحد اخذ عنه الجميع ولا يبعد ان يكون  
ذلك المصدر من جانب الشام او من جانب من كان مع نور

الدين من الامراء الحاقدين على صلاح الدين امثال الياروقى .  
اما نحن فنرى لكل تلك الحوادث تفسيراً آخر نعتقد انه اكثر  
اتفاقاً مع الاحوال والاشخاص :

(١) فرجوع صلاح الدين عن الشوبك سنة ١١٧١ م وعن  
الكرك سنة ١١٧٣ م كان امراً طبيعياً ولولا تلك القصة التى  
يذكرونها عن اجتماعاته بأمرائه وما يعزونه اليهم من الاقوال  
لما كان هناك ما يستغرب فى عمل صلاح الدين . فالشوبك  
والكرك حصنان من امنع الحصون فى فلسطين وكان  
فتحهما من اكبر الفتوح التى تغنى بها الاسلام فيما بعد  
بعد جهود عظيمة ومحاولات متكررة أخفقت مرارا وكان يحميهما  
جماعة من المحاربين المستبسلين الذين يقاومون حتى لا يكون  
دونهم ما يقاومون به مال او دم . وكان صلاح الدين فى سنة  
١١٧١ م خارجاً من احداث انقلاب بمصر وازالة دولة لها فى  
البلاد اصل ثابت منذ قرنين وكان لها اتباع وأنصار يفكرون  
فى الدفاع وارجاع الامر الى ما كان عليه ولا سيما انه كان اذ  
ذاك حديث عهد بثورة السودانين ولا يأمن ان يترك مصر  
الا قليلاً . ففى سنة ١١٧١ م عندما حاصر الشوبك رأى ان  
الحصن لن يسلم الا بعد امد قد يطول وان نور الدين قد  
يشترك فى الحرب فيجعلها واسعة الدائرة فينتقل من ميدان  
الى آخر وهو الرجل الذى يحب الجهاد ويجعل حياته له ،  
فأثر الرجوع وأرجأ فتح ذلك الحصن الى وقت آخر ولو كان  
يخشى الاقتراب من نور الدين فما كان الذى دعاه ان يفكر

مبتدئا في غزو فلسطين ؟ اما كان يؤثر من اول الامر ابقاء الصليبيين بينه وبين من يخافه ؟

(٢) واما في سنة ١١٧٣م فقد كان صلاح الدين يشم خطرا في الجو لا تفوته حركة من حركات صديقه وعدوه على السواء فلما دعاه نور الدين الى حصار الكرك لم يستطع ان يمتنع حتى لايسيء سيده به الظن فذهب الى هناك في شوال وكان هو السابق وظل على الحصار وحده مدة شهرين ثم اقبل نور الدين بعد ذلك متاخرا في ذي الحجة

ورأى صلاح الدين اثناء ذلك امتناع الحصن عليه ، ولعل نور الدين لو كان اشترك معه من اول الامر لكان الحصن قد سلم او لكان على الاقل هناك تساو في المجهود يبعث نور الدين على الاكتفاء وترك الحرب الى حين ، فتأخر نور الدين كان معناه ان غياب صلاح الدين عن مصر سيستمر الى مدة اطول ولا سيما وان جيش نور الدين كان لا يزال جديد الهمة وهو يعرف ان نور الدين اذا بدأ الحرب فلن ينتهي منها الا بعد ان يبلى بلاء حسنا ولن يستطيع صلاح الدين ان يترك الحرب اذا هو بدأ فيها الى جانبه لئلا يكون ذلك تخذila . فآثر ان يتبع من اول الامر ما تمليه الرجولة ويوجب له الحذر فأرسل في ادب معتذرا وأظهر خضوعه بما ارسل من هدايا وانفذ رسوله رجلا يعرف ما كان عليه من صفات ولا يطعن احد في اخلاصه وهو الفقيه عيسى الهكاري وكان رجلا شجاعا دينا قلو وجد شيئا



على صلاح الدين من الخيانة لسيدده لكان يفضى بذلك الى نور الدين اذ كان يعتقد انه المجاهد فى سبيل الله المخلص فى غزواته القائم فى عبادته الزاهد فى دنياه . ولم يكن نور الدين فى قلوب الناس ولا سيما الفقهاء بأقل مما كان صلاح الدين بل ان الناس جميعا كانوا اميل الى الخضوع له واتباعه مما كانوا يميلون الى الفتى الناشئ

ولكن الفقيه لم يذكر الا كل خير ولم نسمع عن نور الدين انه قال الا جوابا مرضيا

ولكن كان حول نور الدين جماعة من أمثال الياروقى الذين كانوا يرون صلاح الدين قد سلبهم ملك مصر ولا بد أن هؤلاء كانوا يحاولون ما استطاعوا أن يظهروا لنور الدين سوء نية منافسهم لعله يحقد عليه ويخلعه فيكون ذلك انتقاما لهم منه . فجعلوا يفسرون حركات صلاح الدين بما شئت لهم نفوسهم المغضبة

ولا يبعد أبدا بل نرى أن تفسير حركات صلاح الدين بعدم رغبته فى مقابلة نور الدين من وحى هؤلاء واشاعاتهم

أما قصة المجلس الذى جمعه صلاح الدين بعد رجوعه عن الشوبك فانها تشبه القصص التى نسمعها فى المؤلفات الخيالية حتى أنها لتورد الالفاظ التى قالها أيوب لابنته فى خلوة وهو ينصحه ألا يقول شيئا فى العلن الا الخضوع لنور الدين ويؤكد له فى نفس الوقت أنه لو أراد نور الدين قسبة من مصر لحاربها عليها . وأن نجم الدين الحريص ليكون ممن ينصح بشئ ويخالفه

ويعلم وهو محتاج الى التعالم لو كان أسمع أحدا ما قاله لابنه  
اذ ذاك فى خلوته . والا أفليس من المضحك أن يعرف مؤرخ  
ما قاله نجم الدين لابنه فى خلوة ولا يعرف ذلك نور الدين  
نفسه ؟

على أن هناك ما يفيد أن سيرة ذلك المجلس وما وقع فيه لم تكن  
الا خيالا فان ابن شداد وهو القاضى بهاء الدين مؤلف سيرة  
صلاح الدين وصاحبه فى مسيره وحروبه لم يذكر شيئا عن  
ذلك المجلس ولم يذكر والد صلاح الدين ولا نصيحته ولكنه  
نقل إلينا وهو مصدق فيما يقول - قال سمعت صلاح  
الدين نفسه يقول : « كان بلغنا أن نور الدين يقصدنا بالديار  
المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف  
ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصد  
وكنى وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شىء من ذلك »  
فالحقيقة هى أن نور الدين تغير على صلاح الدين وأساء  
الظن به لانه حمل على أن يؤول حركاته وأعماله بغير ما قصد  
- وعزم على السير اليه وصلاح الدين صابر لا ينوى مقاومة ولا  
يظهر الا الخضوع ولا يبطن الا الاخلاص

(٣) و (٤) وأبلغ من كل ذلك ذكر فتح النوبة والقول بأن  
ذلك كان مقصودا به فتح ارض تكون ملجأ من نور الدين .  
والواقع أن تلك الحملة لم تكن الا لتطهير جنوب مصر من بقايا  
الحرس السودانى الذى كان لا يزال منه بقية ثائرة بالصعيد  
حتى تكون مصر كلها مطمئنة له من البحر الى أقصى حدودها

الجنوبية وأما فتح اليمن فمن الغريب أن يستأذن صلاح الدين نور الدين لو كان عنده نية المخالفة ومن الغريب أن نور الدين يأذن له بإرسال الجيش الى هناك لو كان حقيقة يعتقد أن ذلك الرجل يخون

فالواقع الذي نراه هو أن سوء ظن نور الدين لم يبدأ منذ سنة ١١٧١ م بل انه قد بدأ يتجسم له من بعد موقعة الكرك وبعد السماح بحملة اليمن سنة ١١٧٣ م وأن ذلك الظن لم يتجسم الا من سعى أعداء صلاح الدين ومتنافسيه وأن صلاح الدين ظل الى نهاية الامر لا يتأثر بما يشاع عن تغير نور الدين عليه . وأما أبوه نجم الدين رحمه الله فلم يكن له من أمر ذلك المجلس المزعوم شيء بل نعتقد انه عندما مات بمصر اثناء المدة التي كان فيها صلاح الدين عند الكرك أو عائدا منها سنة ١١٧٣ م كان لا يفكر تفكيرا جديا في أن هناك سوء ظن بين ابنه وبين سيده



## ثورة المصريين

لعل صلاح الدين لم يكن فى حياته كلها فى خطر أعظم مما كان فيه فى سنة ١١٧٣ م ( ٥٦٩ هـ ) وسنة ١١٧٤ م ( ٥٧٠ هـ ) فان عوامل كثيرة اجتمعت على عداوته ولما لم تجد فرصة تمكنها منه علنا فى ميادين النضال عمدت الى الدسائس والمؤامرات فكان فى مصر حزب موال للشيعه العلوية أصبح حاب الخلافة المنقرضة ، وكان فى جيش صلاح الدين جماعة من الجند لم ينالوا ما يرضيهم فكرهوا حكمه ، وكان بقية من الجند السودانيين الذين يكرهون صلاح الدين لا يزالون بمصر ، وكان هناك الفرنج وقد رأوا بلاءه فيهم عند دمياط ، وكذلك كان هناك الاسماعيلية الفدائيون الذين كانوا يميلون الى الفتك بمن قضى على دولة علوية مذهبها الدينى مثل مذهبهم . وكان صلاح الدين صاحب ذكاء متوقد وحذر لا تفوته فائتة فأدرك ان بالجو أمورا تنذر بالخطر ولهذا لم يأمن أن يبقى خارج مصر طويلاً فأرأيناه يعود من الكرك سنة ١١٧٣ م قبل أن يتم فتحها ولم ينتظر لكى يشترك فى الحرب مع نور الدين كما مر . وقد حسب أعداؤه أن الفرصة سانحة لبعده جزء كبير من الجيش فى حرب اليمن ( سنة ١١٧٣ م - ١١٧٤ م ) فأحكموا أمرهم ودبروا الوثوب به . ولا يسعنا الا أن نبصر ما ارتكبه صلاح الدين من الخطأ

بتسيير حملة اليمن فى ذلك الوقت مع توقعه الخطر - ولا نجد مبررا لانفاذ تلك الحملة الى ذلك القطر البعيد الا رغبته فى أن يملك طرف البحر الاحمر من الجنوب كما ملك ثغرايلة على راسه من الشمال ليمنع الخطر الذى كان فى ذلك الوقت يهدد البلاد المقدسة من ناحية المسيحيين ، اذ كانوا يفكرون فى حشد أساطيل عظيمة فى ذلك البحر لغرض الاغارة على الحجاز وقبر النبى . ولكن لحسن حظه علم بأمر المؤامرة قبل أن تنفذ خطتهم المحكمة وذلك بسعى زين الدين على بن نجا الواعظ ، فقبض على رؤساء المتآمرين وصلبهم بعد أن حاكمهم وأقروا ، وبذلك قضى على النار قبل أن تشب . ولكنه اذا كان قد قضى على رأس الحية فقد خلف ذنبها ، وبسيجد فيما بعد صعوبة فى تحطيم ذلك الذنب كما سيأتى

وكان اكبر من صلبهم من رؤساء المؤامرة «عمارة اليمنى» الشاعر وهو الذى حسن الى شمس الدولة أخى صلاح الدين فتح اليمن وكان يباهى بأنه هو الذى أفسح السبيل للمتآمرين بأن حمل شمس الدولة على الاقدام على حملة اليمن وبذلك أبعد جزءا كبيرا من الجيش عن مصر . وكان لعمارة أشعار فى الفاطميين منها :

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة      لك الملامة ان أقصرت فى عذلى  
بالله زر ساحة القصرين وابك معى      عليهما لاعلى صفين والجميل  
وقل لاهلها والله لا التحمت      فيكم جروحي ولا قرحي بمندمل  
وقد أظهر صلاح الدين كعادته حكمة عظيمة فى أنواع

العقاب فانه بعد أن صلب القادة الكبار اكتفى بأن نفى من  
اشترك في المؤامرة من أجناد المصريين الى اقاصى الصعيد وتحفظ  
على من بالقصر من سلالة الفاطميين - وأما الذين نافقوا عليه  
من جنده فلم يتعرض لهم ولم يعلمهم أنه علم باشتراكهم وآثر  
أن يستميلهم بإزالة ما يشكون منه وحدث ذلك كله فى أبريل  
سنة ١١٧٤ م ( رمضان سنة ٥٦٩ هـ )

ولكن الفرنج لم يعلموا أن المؤامرة قد كشفت وقضى عليها .  
ولهذا جاءوا من البحر الى الاسكندرية فى يوليو سنة ١١٧٤ م  
( ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ ) يحسبون أنهم سيضربون جبهة  
صلاح الدين فيصدعونها على حين يخرج احلافهم الخونة من  
خلفه فيجهزون عليه ولكن خاب ما أملوا

## وفاة نور الدين

بعد القضاء على تلك المؤامرة بنحو شهر ونصف أتى الى صلاح الدين نعى نور الدين العظيم، وانا لا نستطيع الا ان نذكر بالاعجاب ذلك البطل ( نور الدين ) الذى جعل كل حياته وقفا على الدفاع امام قوم اغاروا على بلاد ليست لهم، واتوا ما اتوا من المظالم فى شعب يرى نفسه حاميا له وملزما بالدفاع عنه . وقد كانت حياته سلسلة حروب لا بأس من ان نسميها جهادا . وقد كان نجاحه فيما قصد اليه نجاحا كبيرا فكون دولة عظيمة ورد تيار الانتصار نهائيا من جانب الصليبيين، فأصبح فى جانب دولة الاسلام، وكان يدعى له على منابر مصر والشام الى الموصل واليمن . على أن دولته كانت على النظام الإقطاعى يحكم كل اقليم منها حاكم شبه مستقل يدين له بالدعوة ويرسل اليه العسكر والمال كلما لزم له حرب . وكان نور الدين فى خلقه مثلا من الامثلة العليا فى الزهد فى غير مراة ، والتدين فى غير تعصب ، والعدالة فى غير تشدد . وكان هو نفسه فى مقدمة المحاربين لا يتأخر بل يحارب بنفسه غير خائف أن يصاب ولا يطيع من ينصحه بالاحتراش ، ولا أدل على روحه من أن نور الدين ماقاله مرة ، وقد نصحه ناصح ان يدع الحرب خوف أن يصاب



فيكون في اصابته هلاك المسلمين فقال : «ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ ان من قبلى من حفظ البلاد والاسلام ، وذلك هو الله » ولا ندرى كيف كان وقع نبأ موته على صلاح الدين واكبر ظننا انه اساءه ايما اساءة واحزنه اعظم حزن (١) على اننا لا نقدر ان نتناسى ان موته اخرج صلاح الدين من خطر عظيم ، وذلك ان الخلاف الذى دب بينهما بعد سنة ١١٧٣ م كان لا بد يصل الى حد بعيد لو بقى نور الدين حيا . ومن يدري هل كان صلاح الدين يحتفظ الى آخر الامر بما سار عليه الى ذلك الوقت من الحفاظ والاعتدال ؟ !



---

(١) ظل صلاح الدين يذكر مولاه نور الدين بكل حسنة الى آخر حياته وتدل جميع اقواله بعد ان صار السلطان الاعظم في العالم الاسلامي على انه ما زال يحن الى ذكرى سيده ويقدر فيه البطل الزاهد العادل

## بعد وفاة نور الدين

بعد أن مات نور الدين تركت الدولة الإسلامية الكبرى لابنه الملك الصالح إسماعيل وهو صبي يبلغ من العمر نحو إحدى عشرة سنة وجعل مقامه بدمشق وحلف له الأمراء الكبار وضربت النقود باسمه في كل جهة من أول مصر إلى أطراف الشام . وكان في البلاد الشامية والجزيرة عواصم ثلاث أخذت القيادة في حوادث تلك الأيام وهي دمشق وحلب والموصل إذ أن سيف الدين غازي ابن أخي نور الدين ( أي ابن عم الملك الصالح ) أسرع إلى الاستقلال بما يليه من البلاد وأعلن نفسه أميرا على الجزيرة وكان حوله من أمرائه من يحسن له أن يذهب إلى الشام ويستولي عليها فليس بها من مانع . ولكنه أثر أن يقنع بالجزيرة وبقيت الشام في أيدي الملك الصالح أو بقول أدق بقيت في أيدي الأمراء الذين استولوا على الملك الصالح تحت اسم الوصاية عليه وتولى تربيته . فكان الأمر في الواقع في يد شمس الدين محمد بن عبد الملك المشهور بابن المقدم بدمشق، وشمس الدين علي ابن الداية وهو أكبر الأمراء النورية وكان في حلب . وقد شهد الفرنج ما أصاب دولة نور الدين من الصدع بعد موته ، فان مصر صارت مستقلة ولو أن صلاح

الدين كان لا يزال خاضعا فى الظاهر للملك الصالح داعيا باسمه على منابره ، وكانت الجزيرة فى يد سيف الدين غازى ، وحلب فى يد شمس الدين بن الداية ، ودمشق والملك الصالح بها فى يد شمس الدين محمد بن المقدم . وكان بين هؤلاء جميعا تنافس على أيهم يسود وكل منهم ينظر الى الآخر مترقبا حذرا أن يشب به اذا هو لقي منه غرة . فانتهاز الفرنج الفرصة وألقوا بفرسانهم الى دمشق وما جاورها ، ولم يستطع شمس الدين ابن المقدم أن يقاوم هجماتهم ، أو لعله كان يستطيع ولكنه أثر أن يذل لهم زعما منه أن الامراء فى الموصل وحلب ، وصالح الدين فى مصر ، اذا رأوه منشغلا فى حرب الفرنج ينتهزون فرصة انشغاله فيهبطون على ما فى يده فيسلبون طعمته . وهكذا يضمحل أمر الدول اذا هوى فى أيدي قوم لا يتطلعون الى أبعد من أنوفهم ولا يدركون ألا ما تقدره نفوسهم الصغيرة

فصالح شمس الدولة بن المقدم الفرنج على مال يعطيه لهم وأسرى يطلقهم ممن كانوا عند المسلمين منذ حروب نور الدين

وأعقب ذلك بالشام تنافس شديد بين أمير حلب وأمير دمشق على أيهما يستولى على الملك الصالح وأدى ذلك الى أخذ الملك الصالح الى حلب ثم الى مفاوضة مع سيف الدين صاحب الموصل أن يأتى الى الشام لكى ينجى دولة نور الدين من سفه أمرائه المتنافسين ولكن سيف الدين أبى أن يتدخل فى ذلك فارتدت المفاوضة الى جهة مصر وبلغت الدعوة صلاح الدين ليأتى الى الشام وكان قد فرغ من اصلاح أمر مصر وتثبيت قواعد دولته

فيها • فلبى الدعوة وسار نحو دمشق وبذلك بدأ أول خطوة في سبيل التدخل في أمر حكام الانحاء الاخرى من الدولة الاسلامية ، ولن ينتهى السير في ذلك السبيل دون توحيد جميع الدولة في يده فتكون قوة واحدة للجهاد كما كانت في يد نور الدين • وقد وقع ذلك ما بين سنتى ١١٧٤ م - ١١٨٦ م





## الفصل الرابع

صلاح الدين

واتحاد مصر والشام





## هزيمة الفرنج بالاسكندرية

كان موت نور الدين كما قدمنا مؤذنا بسعى الفرنج من جديد لكي يستردوا ما أخذ منهم ذلك الملك العظيم ، فشاروا بالشام، وذهبوا الى قرب دمشق، وكان أبناء نور الدين ووزراؤهم على غير ما عهد الفرنج من أبيهم العظيم . وكذلك ظن الفرنج الذين اشتركوا في التآمر على صلاح الدين كما اسلفنا فاعتقدوا انهم يستطيعون عند ذلك ان يضربوا ضربتهم لتكون قاتلة . فاجتمع لهم سفن كثيرة من الشام وصقلية بلغت عدتها نحو ٢٨٢ سفينة وجاءوا الى الاسكندرية ونصبوا المجانيق والدبابات عليها في يوليو سنة ١١٧٤ م ولكن شتان بين ما لقيهم به صلاح الدين من العدة وبين ما لقيهم به وزير الملك الصالح بدمشق فقد كان أهل مصر واثقين بقائدهم وحاكمهم ولهذا أبدى أهل الاسكندرية من الشجاعة ما أدهش المهاجمين ثم وصلتهم نجدات العسكر فزادهم ذلك صبرا في الحرب ، ثم بلغ الامر الى صلاح الدين فأسرع بجيش الى الاسكندرية وبالحق في الاحتياط فأرسل جيشا آخر الى دمياط فلما عرف المدافعون مسيره اليهم دببت فيهم حماسة عظيمة وأبلوا بلاء حسنا فهزم الفرنج ، وغرقت سفن كثيرة وفشلت حملتهم فشلاتاما. ولسنا

ندرى ماذا كان يحدث لو وقع الهجوم من أربعة شهور قبل أن يقضى صلاح الدين على رؤوس المتآمرين فى داخل البلاد !

### استتباب الامر لصلاح الدين فى مصر

دخل صلاح الدين مصر أول مرة مع عمه سنة ١١٦٤ م ودخلها آخر مرة مع عمه أيضا سنة ١١٦٩ م ثم أقام بها وزيرا للعاقد الى سنة ١١٧١ م ومن ذلك الوقت صار فيها شبه ملك مستقل خاضع لنور الدين على الاسلوب الاقطاعى . وقابل مشاكل مصر العديدة منتصرا فى كل موقف بغير أن يحدث زعجة أو يثير ضجة ، بل لقد وقف وهو وزير بين نور الدين السنى المجاهد وبين العاقد الفاطمى ، واستطاع بكياسته وحسن اختياره أن يحفظ توازنه ويسير الامور سيرا ناعما ، فلم يحقد عليه العاقد بل ظل على تقديره والاخلاص اليه حتى مات ، وليس ادل على ذلك من طلبه رؤيته وهو فى أشد حال من مرضه قبل وفاته . وكذلك لم يجد نور الدين فى سلوكه ما يجعله يندم على اقرار امره والموافقة على تقديمه امام الجلة من كبار امرائه . ثم أصبح بعد موت العاقد ملكا على مصر فعلا مع بقائه على الخضوع لنور الدين ، وبدأ يشترك فى امور الدولة الاسلامية العامة فى حين ضبطه لمصر فى داخلها وخارجها ، فاذا قلنا ان سياسته كانت تامة النجاح لم يكن فى ذلك شىء من المبالغة ، اذ ما أتى آخر عام ١١٧٤ م حتى كان قد أسس دولة فتية على رأسها جيش واثق برئيسه ، وتدعمها سياسة اقتصادية حكيمة ملأت خزائن الدولة بغير أن تنسى

الاصلاح والتعمير ، واذا كان لرأى الشعب فى تلك العصور قيمة فقد ادرك الشعب المصرى ان فوقه رجلا ولا كالرجال ، بل هو القائد الفذ والمصلح الذى لم يعهد مثله ، فهذات احوال مصر وسارت فى سبيل الاطمئنان الذى سيعدها لاستقبال عصرها المجيد ايام دولة بنى ايوب ومن جاء بعدهم من السلاطين الممالك ، فلا نسمع بعد بثورة الا كان القضاء عليها امرا لا يحتاج لاكثر من ايام ، كالثورة التى قامت بها البقية القليلة من اعداء دولة صلاح الدين وكانت فى الصعيد بقيادة رجل يعرف بالكنز ، فلم تلبث ان قضى عليها قضاء يدل على ان اساس الدولة قد صار راسيا متينا

ولم ينس صلاح الدين ان يجعل لمصر حصنا كما كان لبلاد الشام حصون ولم يرض عن سور القاهرة ولا عن حصنها فصعد فى الجبل ، واختار اقرب رأس منه مشرف على القاهرة ، وفكر فى ان يبنى عليه قلعة . ولانقدر الا ان نرى فى عزمه هذا اثرا من آثار العصر وروحه فان المحاربين عند ذلك كانوا لا يثقون الا فى القلاع سواء فى ذلك الفرنج والمسلمون ، وكان الشرق من الشام الى فارس لا يرى العز والمنعة الا فى القلاع فى تلك العصور المضطربة ، وكانت مصر بلادا سهلة فمن ملك ناصية الجبل المطل على عاصمتها استطاع ان يمتنع على المغير الاجنبى اذا غزا ارباض القاهرة ، وكذلك يستطيع من يملكها ان يظهر لكل ذى عينين فى تلك العاصمة ان هناك قوة كبيرة ماثلة امامه يقبض عليها رأس الدولة ، ويقدر ان يقذف بها على من

يخالفه

ولكن مشاكل الدولة الاسلامية بعد موت نور الدين دعت  
صلاح الدين الى ان يترك مصر وأمورها الى حين ، ولهذا لم  
يبدأ بناء القلعة والسور الذي عزم على اقامته بينها وبين القاهرة،  
بل أجل ذلك حتى يقابل الاخطار التي كانت تهدد دولة نور  
الدين ، فأسرع الى الثغرة ليسدها لانه شعر انه وارث العبد  
بعد وفاة العميد الاول ( نور الدين ) وأن عليه واجبا كبيرا وهو  
جمع الازمة في قبضة واحدة ليتم عمل السابقين في جهاد  
اعداء الدولة الاسلامية



## توحيد مصر والشام

كانت رحلة صلاح الدين الاولى بالشام اشبه شيء برحلة زيارة ، اذ انه لم يعد عدة حرب ولم يظهر بمظهر الفاتح وانما ذهب اجابة لدعوة توجهت اليه ووجد في البلاد التي دعتة استعدادا للانضمام تحت لوائه ، وسرورا بالاتحاد مع دولته المصرية العظيمة

سار في نحو سبعمائة فارس في اواخر عام ١١٧٤ م (٧٥٠هـ) حتى بلغ دمشق ولم يجد حريا لامن اصحاب البلاد المسلمين ولا من المسيحيين الذين على جانب طريقة ، فخرج اليه اهل دمشق وعسكرها ورحبوا به ، واعلن انه انما جاء في خدمة الملك الصالح ونصرته وسلمت له القلعة بدمشق ، وحدث الانقلاب بغير سفك دماء . ثم سار الى الشمال نحو حمص وحماه وهو يردد اعلان امره ، وانه انما جاء في سبيل نصره الملك الصالح ليمنع عنه جور ابن عمه سيف الدين غازي من جهة ، واستبداد امرائه من جهة اخرى ، واعتداء الفرنج على بلاده من جهة ثالثة . وقد قاومته قلعة حمص حينا الى ما بعد حصار

حلب ثم سلمت اليه . ولكن انضم اليه صديقه القديم (جورديك) وكان حاكما على قلعة حماة ، وسارا معا الى حلب . وكان الامراء الذين مع الملك الصالح يفزعون من أن يستولى صلاح الدين على حلب خوفا من أن يقع الملك الصالح في يده دونهم ، فقاوموا وجعلوا الملك يستشير حمية أهل حلب للدفاع عنه حتى ساعدوه مستبسلين ، وخرجوا الى حرب صلاح الدين - وقد بذل امراء حلب في ذلك الوقت همه في الدفاع عن انفسهم لم يكن صلاح الدين يتوقع مثلها منهم فقد كان الامر امر حياة أو موت لهم . ولهذا أرسلوا باسم الملك الصالح يستنجدون بمن يتوقعون منهم المساعدة لا يبالون بشيء الا بأن يخلصوا من خطر صلاح الدين . فأرسلوا الى الفرنج يطلبون مساعدتهم وكان كبيرهم ( الكونت ريمسون ) حاكم طرابلس ويسميه العرب القمص ( ريمند ) . وكذلك أرسلوا الى «سنان» مقدم طائفة الباطنية الفدائيين الاسماعيلية لكي يرسلوا فتاكهم يفتالون الرجل المخيف الذي قد يعجزون هم وحلفاؤهم عن مقاومته صراحة في ميدان النضال الشريف ، وأرسلوا الى جهة ثالثة غير مؤملين منها مساعدة وهي الموصل حيث كان سيف الدين غازي

فكان صلاح الدين يحاصر المدينة ويقابل دفاع أهلها الشجعان في حين كان القمص ريمند يتحرك عليه ليأتي اليه من الجنوب فيقطع عليه خط الاتصال مع قاعدة ملكه . وفي الوقت نفسه أرسل رئيس الاسماعيلية جماعة من رجاله فوثبوا بصلاح

الدين ولكنهم لم يقدرُوا أن يصلوا اليه . فرأى صلاح الدين أن قوته أقل من مقابلة كل هذه المقاومة التي ماكان يتوقعها وخشى من حركة الفرنج ولكنهم عادوا ولم يخاطروا بمحاربته عندما راوه يتحرك ضدهم وأما هو فاعتنم الفرصة لكي لا يجعل من ورائه قلعة تهدد ظهره فاستولى على قلعة حمص التي كانت الى ذلك الحين تقاوم واستولى كذلك على بعلبك ثم عاد الى حلب بعد أن جمع من مصر أمدادا لجيشه ، وأعد العدة للنضال والحرب الذي لم يكن في نيته أول الامر



وقد كانت العداوة التي أظهرها أمراء الملك الصالح، ومقاومتهم تلك التي استعانوا فيها بالفرنج والاسماعيلية ونزولهم الى وسائل ياباها النضال الشرعى - لقد كان ذلك كله سببا في أن يقطع صلاح الدين اسم الملك الصالح وأن يعلن في خطبته استقلاله منذ سنة ١١٧٥ م وقد خلع عليه الخليفة العباسي ولقبه سلطانا وأصبح له مكان شرعى فوق قوته الفعلية . فلما عاد الى حلب كما تقدم وجد جنود سيف الدين غازى قد وصلت لان ذلك الامر قد تغلب عليه الخوف من صلاح الدين فبعد أن كان حذرا لا يريد التدخل في أمور الشام رأى أن يساعد الملك الصالح حتى لا يدع ملك صلاح الدين يقوى ويصبح خطرا على استقلاله في الجزيرة ، فقابل صلاح الدين جنود الموصل عند ( قرون حماء ) فهزمهم ثم عاد الى حلب فحاصرها حتى اشتد الامر على من بها ، ففاوضوه في الصلح على أن يبقى كل من الجانبين



ما في يده من البلاد . وبهذا أصبح ملك صلاح الدين ممتدا من مصر الى حماه وجعل ينظم دولته الجديدة ، فولى على اقطاعها امراء من اهله وممن يثق بهم

غير ان الصلح بين الجانبين لم يدم طويلاً وكان نقضه على يد سيف الدين غازي صاحب الموصل، اذ عاد بعد عام الى حلب وكان صلاح الدين مطمئنا الى المعاهدة التي ابرمها معه في العام الماضي، فأرسل جنوده الى مصر وكانت تلك غرة منه لو عرف اعداؤه ان ينتهزوها ولكنهم لحسن حظه تباطؤوا ولعل ذكر النصر الماضي الذي احرزه صلاح الدين هو سبب ذلك التباطؤ الذي نشأ عن مبالغة اعدائه في الحذر . فوجد صلاح الدين زمنا كافيا لجمع الجنود والسير الى اعدائه والراحة بعد جهود السير السريع، وكان لقاء جيش سيف الدين قرب حلب عند ( تل السلطان ) وهناك كان اسم صلاح الدين وعدم ثقة جنود سيف الدين بقوادهم سببين داعيين الى الانهزام بغير مصادمة ، وهرب سيف الدين عائدا في خوف الى الموصل تاركا جيشه تحت امره اخيه عز الدين . وتبع صلاح الدين المنهزمين الى حلب وبعث بعوثة الى الحصون المجاورة مثل منبج واعزاز ففتحهما. وحدث له في حصار اعزاز حادث يستحق ان يذكر ، وذلك ان فتاكي الاسماعيلية عادوا مرة اخرى الى الوثوب به حتى ان احدهم وصل اليه وضربه في راسه بسكين ، ولولا المغفر لقتله، فأمسك صلاح الدين بيده ولكنه لم يقدر على منعه من الضرب فكان يضربه في عنقه ضربات ضعيفة لم تؤثر فيه اذ كان عليه

الکزاغند (١) یحمیه ، واستمر الفاتک یحاول التخلص من قبضته  
ویضربه حتی أدركه بعض امرائه فقتلوا ذلك الفاتک فهجم آخر  
عليه ثم ثالث فقتلا دونه ، ونجا صلاح الدين نجاة عجيبة . ولكنه  
مع ذلك بقى على حصار قلعة اعزاز حتی فتحها . فأصبحت  
حلب معزولة وسط املاکه ورأى من بها ضعف موقفهم  
ففاوضوا فی الصلح مرة أخرى . ومن العجیب أن صلاح الدين  
مع انتصاره ومع ماشهده من دناءة أعدائه فی التجائهم الى  
الندالة فی الکيد له وتقضهم العهد معه نقول من العجیب أنه  
قبل مفاوضاتهم ولم یشتط عليهم فی الشرط بل ترك لهم  
حلب ونزل لهم عن اعزاز اکراما لابنة صغيرة لسيده نور الدين  
وكانوا اخرجوها اليه فطلبت منه تلك القلعة التي کاد یهلك  
فی اثناء فتحها ، فأجابها الى ذلك وأضاف هدايا ذات قيمة  
مراعاة لذكری أبيها . واتفق الجميع - فی آخر یولیه سنة  
١١٧٦ م - على أن یكونوا یدا واحدة على من ینقض العهد  
ولنترك هذا التصرف بغير تعليق لعله ینبئ بشيء مما  
کان عليه صلاح الدين أو لعل فيه ردا بلیغا على من یتهمسه  
بقلة الوفاء

---

(١) الکزاغند لباس یلبسه المحاربون فی العصور الوسطی للوقاية من ضربات السیوف

## موقف صلاح الدين امام أسرة نور الدين محمود

لا يضر الرجل العظيم ان يذكر له عيب ، ومتى كان الانسان كاملا ؟ وهكذا امر صلاح الدين فليس يضره ان يقول قائل قد كان به نقص ولو كان ذلك النقص خلقيا . فكثيرا ما يعمد رجال الدول ولاسيما رجال السيف الى وسائل تأباها الاخلاق ولكن تبررها الحاجة العملية . فيمر عليها التاريخ متساهلا كأنما يهز راسه مستسلما لطبيعة الاشياء ، ولكنامع ذلك لا نرى راي من يطعن على صلاح الدين في موقفه امام أسرة نور الدين ويتهمة بقلّة الوفاء والجحود ، فانا نرى الوقائع كلها تدل دلالة لاشك فيها على ان صلاح الدين كان دائما يؤثر ان يخسر شيئا من الدنيا في سبيل الاخلاق والقلب ، وما كان هو ممن يتخطون الفضائل في سبيل شيء من الاشياء ولو كان مما يكبر في الاعين . حقا لقد سار صلاح الدين الى الشام واستولى على دمشق ثم وقف بعد ذلك وحارب جنودا اسمها جنود الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين . وهكذا يقول بعض القائلين لقد كان صلاح الدين رجل طمع في الدنيا فضحى من أجلها بما كان يجب أن يرعى من ذمة في بيت له عليه فضل النعمة والترية

لسنا ندري ماذا كان هؤلاء يريدون؟ كان الحكم للملك الصالح  
اسما وتنافس على اسمه الامراء أيهم يسود فيستعمل رقية  
ذلك الاسم في الوصول الى غرضه ، وكان من وراء ذلك التنافس  
أن أصبحت الدولة الإسلامية واهنة محطمة تمد يدا سفلى الى  
أعدائها الفرنج بعد أن كانت تملئ عليهم ارادتها أيام نورالدين .  
وقد كان صلاح الدين شريكا فى اقامة تلك الدولة العظيمة  
وشهد من نصرها ما كان يجعله يدرك مرارة الموقف الجديد من  
الخدلان ، ثم رأى الامراء المتنافسين وهم يتهافون على اشياء  
لا يقيم هو لها وزنا ، وما كان نورالدين العظيم ليرضى عن ابنه  
ومن استولوا عليه لو أنه شهد ما صنعوا . ولهذا نرى ان  
صلاح الدين كان يخطئ أفحش خطأ لو هو رضى بما وقع ولم  
يحرك يدا لمنع الصرح المجيد من أن يهوى الى الارض محطما .  
وكان من حسن حظ دول الاسلام أنه اتبع ما أملاه عليه قلبه  
العظيم ، ولم يخش تهمة يتهمه بها جانب من الجوانب مادام هو  
يحس من نفسه شرف ما هو صانع وخلص نيته فى القصد الى  
المصلحة

## فترة السلام

إذا قلنا أن صلاح الدين أقبل منذ سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) على فترة سلام دام نحو ست سنين الى سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) فليس معنى هذا أنه لم يحارب طول تلك المدة ، إذ أنه لم يخل عام من حياته من حرب منذ دخل ميدان العمل . وقد كان عصره عصر كفاح مستمر وعصر اضطراب وثوران فى داخل النفوس واضطراب وثوران فى العالم الخارجى ، وقد كان هو نفسه نتيجة ذلك الاضطراب الى حد عظيم . وإذا فمعنى أن هذه الفترة كانت فترة سلام ينصرف الى علاقاته بالدول الاسلامية فانه يظهر فى هذه السنين الست بمظهر المصلح الداخلى الذى يريد أن يقيم دولته على قواعد ثابتة من القوة الحقيقية، قوة الثروة والقانون . فكان يتردد بين مصر والشام يصلح من أمر مصر بحسب ما تقتضيه حاجاتها الزراعية ، ويحاول أن يحصنها تحصينا يمنع اقليمها السهل أن يكون طعمة للمغربين ، ولم ينس أن طبيعتها تستلزم حكومة موحدة قوية المركز فقلل من الاقطاع فيها وجعل أمراء الاقطاع الذين فيها لا استقلال لهم ولا تصرف الى جانب الحكومة المركزية وجعل يقيم فيها المدارس والمستشفيات وامثالها من مستلزمات

المدنية المستقرة على حين كان يصلح من أمر بلاد الشام بحسب ما يقتضيه موقعها ، اذ كان ذلك القطر جبهة الاسلام وميدان النضال بينه وبين القوة المسيحية المغيرة ، فكان من الطبيعي له أن تغلب عليه الصفة الحربية فأقطع بلاده لأمرائه وجعلهم أشباه مستقلين تحت زعامته لا يطمع منهم في أكثر من أن يتبعوا الى الحرب ويظلوا معه حتى يأذن لهم فيعودون الى بلادهم . وكان في كثير من الاحوال يدارى هؤلاء الامراء ويقنع منهم بأن يخضعوا راغبين تحاشيا لكثرة الاحتكاك معهم وهم قوم قد جرأتهم كثرة الحروب وضراهم النضال المستمر فلم يكن نضالهم بالهين ولا شوكتهم باللينة

ولعل انصراف صلاح الدين الى اصلاح دولته قد جعل جيرانه المسيحيين يشعرون بخفة وطأة الدولة الاسلامية ، او لعل ظروف أوروبا ووجود حركة جديدة بها ترمى الى تعزيز كلمة المسيح في الشام وتجديد قوة الصليبيين التي حطمها نور الدين ، او لعل كلا السببين عملا معا على ان يتجرا الصليبيون ويغيروا على ما يليهم من البلاد الاسلامية التي أخذت منهم في مدة السنين الماضية ، ولهذا تجد أن صلاح الدين في هذه السنوات الست لم يكن في سلام تام ولكن أكثر الحروب التي خاضها كانت مع المسيحيين. ولم يكن هو البادئ بها بل كان في أغلبها مدافعا

على أنه كان بين حين وحين يدخل في نضال هين مع بعض الامراء المسلمين اما لخروج أمير من أمراء أقطاعه عليه واما لتبجح

جار عن أداء واجب تعهد به



كان أول عمل اهتم له السلطان بعد صلح سنة ١١٧٦ م محاولته القضاء على الاسماعيلية لتكرار اعتداء فتاكهم عليه . وكان لهم قلاع بالشام اكبرها ( مصيات ) فذهب اليها ونهب عسكره منها غنائم كثيرة واكتفى بهذا المقدار ورجع عنهم بشفاعة خاله

وبعد ذلك بدأت اول حلقة من سلسلة مواقعه مع الفرنج وكانت الحرب بين الطرفين سجالا ، ولكن صلاح الدين ابتدا حروبه بانهزام عظيم سنة ١١٧٧ م ( ٥٧٣ هـ ) عند الرملة وكان ذلك الانهزام نتيجة نقص في الاحتراس وتراخ في النظام عند ما كان جيشه يعبر نهرا . وقد قتل في تلك الواقعة جماعة من اهله واسر غيرهم ، وكان من اعز الاسرى عليه الفقيه المحارب عيسى الهكاري صديقه القديم الذي كانت له يد كبرى في منع خروج الامراء عليه عند ما تولى الوزارة بعد موت عمه شيركوه ، وقد افتداه السلطان بستين ألف دينار . وكانت كسرة الرملة ذات اثر كبير في نفسه حتى انه ذكرها لأخيه شمس الدولة توران شاه في خطاب قال فيه :

« ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر »  
ويقول أيضا : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله الا لأمر يريده سبحانه »

وقد أطمعت واقعة الرملة المسيحيين فساروا الى حماه وكان



صاحبها خال صلاح الدين « شهاب الدين الحارمى » ولكن حظ  
الافرنج كان هذه المرة أقل سعداً فانهمزموا بعد أيام أربعة ،  
وساروا الى قلعة حارم (بقرب حلب) وهى داخلة فى دولة الملك  
الصالح - فلم يقدرُوا على أخذها كذلك ، ثم أغاروا على حمص  
واكتفوا بنهب ما وصلت اليه أيديهم

وكان صلاح الدين قد عاد الى مصر بعد كسرة الرملة ليصلح  
ما أفسدته تلك الهزيمة ولم يطل مكثه بها بل عاد الى الشام  
وكانت عودته فى الوقت المناسب لأن الصليبيين كانوا يسرون  
بين حلب ودمشق فى جرأة لم تعهد منهم منذ نصف قرن .  
ومنذ عودته الى الشام رجحت كفة المسلمين فهزموا أعداءهم  
مرة قرب دمشق سنة ١١٧٨ م (٥٧٤هـ) وسار صلاح الدين بعد  
ذلك الى حصن كان الفرنج بنوه بقرب دمشق واسمه مخاضة الاحزان  
وهناك كانت موقعة كبرى سنة ١١٧٩ م (٥٧٥هـ) هزم فيها  
الفرنج وأسر كثيرا من قواد الصليبيين مثل مقدم الداوية  
رئيس فرقة التمبل او المعبد (١) ومقدم الاسبتارية ( رئيس  
فرقة القديس يوحنا (١) ) و ( هيو ) صاحب طبرية وما زال

---

(١) بعد انشاء الامارات الصليبية الاربعة لم تنقطع البعث الصليبية من  
المجئء الى الشام لامتداد الجيش المحارب ضد المسلمين ، ولكن بعد نحو ثلث  
قرن من انشاء تلك الامارات ذهب الجيل الاول من ابطال الحرب الاولى وشعر  
المسيحيون بالنقص الذى طرا على صغوفهم . وكان فى أوروبا منذ القرن العاشر  
حركة اصلاح فى الدين كانت ترمى الى اعادة الفضيلة المسيحية بانشاء  
الاديرة والطوائف الدينية ( النساك والرهبان ) على مبادئ الزهد والفضيلة،  
فلما انصرفت الهمة الى الحروب الصليبية كان من الطبيعى لأوروبا ان يفكر  
قاداتها من المتحمسين ، واكثرهم من رجال الدين فى انشاء فرق من رهبان  
محاربين يجمعون بين فضائل الزهد والنساك وبين فضائل الانتصار للدين  
وكانت نتيجة تلك الحركة طوائف اكبرها طائفة التملار او فرسان المعبد  
ويسمىهم العرب ( الداوية ) وينسبون الى التمبل او المعبد وهو معبد سيدنا  
سليمان حيث أقامت طائفتهم . ثم طائفة الهسبتاليين او فرقة القديس يوحنا =

صلاح الدين بعد ذلك النصر حتى فتح الحصن ( مخاضة  
الاحزان) ودمره وألحقه بالأرض . ومنذ ذلك الحين استمر  
الرجحان الى جانب الدولة الاسلامية وأخذ صلاح الدين خطة  
الهجوم ، وكان يده اليمنى في هذه الحروب الأمير عز الدين  
( فرخشاه ) ابن أخيه ( شاهنشاه ) وكان بطلا أظهر مقدرة  
كبرى في موقعة دمشق سنة ١١٧٨ م ، وموقعة مخاضة الاحزان  
سنة ١١٧٩ م وقد جعله صلاح الدين أميرا على بعلبك ومن هناك  
جعل يهوى على ما جاوره من بلاد الفرنج مثل الكرك سنة  
١١٨١ م وكان من أمنع حصون الفرنج وصاحبها البرنس  
ارناط ( رجنالد دي شاتيون ) وهو من أشجع أمراء الفرنج كما  
كان من أقساهم وأكثرهم غدرا

وكان صلاح الدين في أثناء هذه الحروب غير خالص من  
المتاعب مع جيرانه المسلمين ولكن يجب أن نذكر أن الملك  
الصالح وسيف الدين غازي ( الثاني ) بقيا على عهدهما الى أن  
لحقا بربهما ، وسواء أكان ذلك برا بالعهد أم خوفا من النضال  
الذي لا أمل فيه فإن صلاح الدين لم يذم جوارهما بعد صلح  
سنة ١١٧٦ م وكان أكبر نضاله مع صاحب قونية وهو ( قلع  
ارسلان ) ولا حاجة بنا الى القول أن قلع ارسلان رأى بعد قليل  
أن الحكمة في أن يتثنى أمام قوة جاره العظيم

---

= ويسمى العرب (الاستارية) وينسبون الى مستشفى بناءه تجار ايطاليون ونسبوه  
الى القديس يوحنا تبركا . وكانت الفرقة في أول أمرها تقيم في بنائه فأطلق  
عليها اسمه

وكان رهبان الطائفتين من أكبر العاملين على الدفاع عن المسيحيين بالشام  
مدة قرن تقريبا إذ كانوا هم العمود الفقري لجيش الصليبيين ويعرفون بالفضل  
والاستقامة والزهد والشجاعة ، وقد أقر المسلمون أنفسهم بذلك رغم العداوة  
التي كانت بين الجانبين

## أعمال صلاح الدين بمصر

بين سنة ١١٧٦ م ، ٥٧٢ هـ - ١١٨١ م - ٥٧٧ هـ .

كان صلاح الدين يتردد الى مصر بين حين وحين عندما يرى يده خالية من أعمال الحرب في الشام وما يليها ، وكان ينتهز فرصة وجوده في تلك البلاد لكي يقيم فيها المدنية التي هي جديرة بها ، فقد كان يحس ان مصر هي الاقليم الذي يليق للمدنية بحكم ثروته وطبيعة موقعه . فان ذلك الوادى الخصب منعزل عن العالم الخارجى بصحارى تكتنفه من الشرق والغرب ، وحدوده من الشمال طبيعية لا يسهل على المغير اختراقها لاسيما في تلك الازمنة ، فلا بد أن تكون منه دولة وأن تكون دولة عظيمة اذا وجدت من يسير دفتها تسير حكيم خبير . وقد أدرك صلاح الدين بعينه الثاقبة وذكائه المتوقد أن عظمة تلك البلاد في الماضى آية دالة على أنها من أصلح أراضى العالم للمدنية لو عرف أهل الحكم فيها كيف يصلون الى اقامتها من قواعدها الصحيحة . ولكن الحرب عدو للاطمئنان ، والاستقرار والمدنية لا تنبت الا في جو من الطمأنينة التامة ، ولهذا رأى أن يجنب ذلك القطر شرور الاضطراب بقدر ما تسمح به الظروف فعمل ما في وسعه لتحصين بلاد الشمال من إغارة الفرنج بعد أن علم

من سبقت لهم اغارة عليها أن حربه تكلفهم كثيرا . ثم رأى أن الوقت لائق لتحصين الداخل ببناء القلعة التى سبق له التفكير فيها وبناء سور حول العاصمة يقيها العدو إذا هو هبط اليها فبدأ فى بناء القلعة بعد عوده من الشام سنة ١١٧٦ م بعد أن انتهى من الصلح مع الملك الصالح وسيف الدين غازى ( الثانى ) وبعد أن فرغ من نهب مقر الاسماعيلية . كما تقدم ، ولكنه لم يستطع اكمال البناء فى حياته لان الحرب لم تلبث أن دعتة مرة أخرى الى ترك ما فى يده من الاعمال الوادعة وخوض غمار الدماء بعد سنة ١١٨١ م وسيظل فى ميدان القتال بعد ذلك الى وفاته

وليست القلعة الحالية التى نراها بالقاهرة هى قلعة صلاح الدين بعينها، فقد دخل عليها من التغير شىء كثير فى مدة من جاء بعده من أسرته أولا ثم من دولة المماليك بعد ذلك، والذى تم بناؤه من القلعة فى حياة صلاح الدين هو هيكلها وبئر الحلزون الذى حفر فى الصخر الى عمق نحو تسعين مترا، وكذلك السور بين القلعة والقاهرة - على حافة الجبل الشرقى فى المكان الذى به ( باب الوزير ) . وأما سائر القلعة فلم يتم الا فى مدة الملك الكامل ابن أخيه بعد نحو ثلاثين سنة من وفاته . وقد أقام صلاح الدين سوراً آخر على حافة الصحراء الغربية بالجيزة تحصينا للقاهرة من الغرب ولكن ذلك العمل كان فى مدة متأخرة بعد عام ١١٨١ م . وبناء القلعة والسور ليس مثل بناء سور القاهرة القديم ولا مثل السور الذى جددته بدر الجمالى فى دولة

الفاطميين ، فان مباني القاهرة كانت في القسالب على النمط البيزنطى منقولة عن مباني القسطنطينية والدولة الرومانية الشرقية

واما مباني قلعة صلاح الدين فكانت على النمط الفرنجى وليس ذلك بغريب فقد نشأ صلاح الدين فى الشام وحارب فيها وعرف اساليب دفاع الفرنج فى حصونهم ، فكان ذلك النمط اقرب الى نفسه ولعله كذلك كان اوفى بغرضه من النمط البيزنطى ، وكان يجعل عماله فى بناء القلعة جماعات من الاسرى المسيحيين الذين كان يأسرهم فى حروبه

لكن نظر صلاح الدين الى الاصلاح لم يكن مقصورا على التحصين ، بل انه كان يرى ان اساس عظمة الدولة لا بد ان يكون الشعب فانصرف الى العناية به

ولقد كان صلاح الدين بطبعه رجل سلام ومدنية ولو أنه كان ملكا فى غير تلك العصور لكان كالمأمون وأمثاله ولكنه اضطر بحكم عصره ان يجعل حياته للكفاح والنضال ، ولذلك نجد اعمال السلم قليلة الى جانب حروبه العظيمة

فبينما كان يظهر الترع القديمة ويقوى جسور النيل وينظم الضرائب بمساعدة رجال أفاضل مثل القاضى الفاضل والعماد الكاتب كان لا ينسى الوجهة الادبية فأدخل نظاما جديدا فى التعليم لم يكن من قبل موجودا بمصر وذلك هو نظام المدارس لقد كان من قبل فى مصر مدارس كبرى مثل دار الحكمة والازهر وجامع عمرو ولكن الاولى والثانى كانا خاصين بتعليم

أسرار الشيعة والباطنية فكان التعليم بهما مصيبوغا بصيغة الدعوة الفاطمية . واما جامع عمرو فكان في الواقع مدرسة صغيرة لا تفي بغرض التعليم العام ولهذا بدأ صلاح الدين بإدخال نظام المدارس العامة التي يسمح فيها بالعلم لكل من شاء ، وبدأ في ذلك منذ صار في مصر وزيرا للعاقد الفاطمي . وما زال بعد ذلك يزيد في هذه المدارس حتى صار منها كثير في أنحاء القاهرة مبعثرة من قرافة الامام الشافعي في الجنوب الى سوق السلاح في الشمال، ولعل عظمة الازهر بصفته مدرسة للعلم لم تبدأ الا منذ ذلك الوقت . ولكن لم يكن في تلك المدارس ما سمي باسم صلاح الدين ولعل ذلك كان ناشئا من خلقه المتواضع فلا نعرف الا قليلا من أعماله ما اطلق عليه اسمه قصدا

على أننا لا نستطيع أن نقول أن صلاح الدين أدخل التعليم بالمعنى الحديث والا كان ذلك انكارا منا لروح العصر . فان التعليم الدنيوي أي تعليم الناس كيف يعرفون الحياة ويعملون فيها لم يكن القصد من المدارس في ذلك الوقت - فان أكبر ما كان يدرس فيها هو القانون أو الشريعة على المذاهب الأربعة . وأما التعليم الصناعي وغير ذلك من فروع العلم المتعلقة بالحياة المادية فلم يكن ذا شأن في تلك المدارس . بل كان متروكا الى أهل الصناعة أنفسهم كل طائفة تسير على خطتها فيه ويتعلم الصغار بالممارسة طريقة الكبار الذين سبقوهم في الصناعة

وأما التعليم الحربي فكان في داخل الجيش نفسه وكان كل ما يتعلق بالإتاه واستعمالها يتعلمه الأفراد ممن نبغوا في هذا الفن .

وكان رجال الجيش كلهم أو على الأقل جلهم من الاتراك والاكراد الذين فى خدمة الامراء فكان التعليم مقصورا على طائفتهم فيدخل الصغير الخدمة ولا يزال بها يتقلب على أنواع الاعمال ويتعلم أثناء ذلك تدريجا ما يؤهله للجنديّة واستمر هذا الى أن زاد الامر زيادة كبرى فى هذا السبيل عندما صار الجيش من الممالك بعد عصر صلاح الدين وصدر الدولة الايوبية

واذا قلنا أن التعليم فى ذلك العصر كان ناقصا من هذه الجهة فليس معنى ذلك أنه كان ناقصا اذا قسناه بما كان فى العالم اذ ذاك فان الواقع كان غير ذلك . لان الدولة الاسلامية كانت فى ذلك العصر هى الدولة المستنيرة ذات العلم والصناعة والمدنية الموروثة عن القرون الماضية من مدنات الدول الاسلامية السابقة . فى حين كان العالم الغربى لا يزال ناشئا يفتح عينيه لاول أشعة النور الضئيلة

وكان للاصلاح الذى أدخله صلاح الدين أثر عظيم فى مصر بنوع خاص ، وذلك ان مصر بقيت بعد ذلك دولة محصنة قاومت الهجمات العنيفة التى صدمت العالم الاسلامى بعد ذلك بقليل عند هجوم التتار ، ذلك السيل الجارف المخرّب ، واحتفظت مصر لهذا بكنز من العلم الادبى ودراسة القانون الاسلامى فلم ينحط مستوى الحياة الادبية فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة ، الى المستوى الذى هبط اليه فى القرون الوسطى والعصور المظلمة فى أوروبا بل بقى الشرع عاليا أمام الناس يحفظه كثير من أهل البلاد وتعلو أصواتهم بالاحتجاج على من يعبت بالناس ويخرق



القانون ، فقلل ذلك من سوء الحال أيام الاستبداد الذى هوى  
اليه العالم الاسلامى فى القرون التى تلت القرن الثالث عشر (١) .  
ولعل هذا هو السر فى أن الشعب الاسلامى ولاسيما المصرى  
لم ينحط الى درك العبودية أو شبه الرق الذى كان فيه شعب  
أوروبا فى عصر جهالته . فقد كان من حفظة الشرع من ينشر  
على الناس احكام القانون ويعلمهم مايجب عليهم وما يحق لهم ،  
ومن يرفع منار القانون عاليا أمام الحكام حتى لا تضل أحكامهم  
ضلالا بعيدا أو تجرفهم فوضى الحروب الى الاستهانة بالحرريات .  
ولهذا كان الشعب دائما محتفظا بكثير من كرامته وحقوقه ، وأما  
ما نسمعه عن مظالم العصور التى أتت بعد القرن الثالث عشر  
فكان أكثرها مظالم مالية لا شخصية ، وكانت أكثر المظالم  
الشخصية واقعة على الامراء والجنود وهؤلاء منعزلون تمام  
الانعزال عن الشعب . فقد كان الامراء يوقعون بعضهم ببعض  
ويخترقون القانون فى أثناء نضالهم ويرتكبون الفظائع ، ولكن  
ذلك لم يتعد كثيرا الى الاهالى الذين كان العلماء على رأسهم حماة

---

(١) مما يجدر بالملاحظة ان الشعب المصرى فى أيام سلاطين المماليك كان بعيدا عن الاهتمام بأمر الحكم فى البلاد وكان كل الامر فى ايدي الجند وامرائهم وهم من المماليك الذين يجلبون من فيانى التركستان او جبال القوقاز . وكان الشعب المصرى آمنا فى صناعته وزراعته وتجارته لا يعاب بشيء مادام رزقه يأتى اليه ، وكانت الارزاق على وجه العموم فى تلك الدولة تأتى اليه فى رخاء وسعة اللهم الا فى أوقات المحن وانخفاض النيل . وكانت طبقة الحكام تتنازع فيما بينها وكانت فى تنازعها تنزل الى قسوة لا يعرف التاريخ مثلها الا فى مثل تلك العصور المضطربة على اثر الحروب العظيمة ، ولكن تلك القسوة لم تتعد صفوف الجند وكان الشعب فى بعده عن الحكم آمنا وادعا الا أن حاجة الحكام الى الاموال كانت تؤدى فى كثير من الاحوال الى مظالم مالية ، فكان الشعب =



للحريات الشخصية (١) • واستمر هذا الأثر طول مدة استقلال  
مصر الى أن تغير الحال بعد فتح الأتراك العثمانيين لها



---

= يظهر أنه وشكواه الى جماعة العلماء الذين أصبحوا على مر الزمن رؤساء  
الوطنيين وكان نفوذهم يزداد عند الشعب والحكام على حد سواء بازدياد البعد  
بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة • وكان السلاطين اذا سمعوا شكوى  
الشعب يرددها العلماء لا يسمعون الا الاجابة وازالة اسباب الشكوى في اكثر  
الاحوال • ومما كان يزيد في قوة تلك المطالب انها كانت تتجه على لسان العلماء  
وهم رجال الدين فكانت الشكوى ترتفع كذلك باسم الدين • والحق ان الدين  
الاسلامى والشرع او ( القانون ) شيء واحد فاذا قلنا ان رجال الدين كانوا  
حماة الشعب كان معنى هذا ان حفظة القانون كانوا حماة الشعب واذا قلنا  
ان الدين كان محترما فمعنى هذا ان القانون كان محترما - فدراسة القانون  
( الشريعة ) كان لها أكبر اثر في حفظ مصر من الانحطاط الاجتماعى الذى كانت  
أوروبا تنه منه في عصرها المظلم في تلك القرون

(١) يذكر ابن اياس قصصا عدة عن قيام العلماء الى السلاطين وبث شكوى  
الناس من الضرائب ونحوها في لغة شديدة ، وعن نزول الحكام على ما يحبه  
العلماء في اكثر الاوقات

## استئناف الحروب بالشام والجزيرة

لم يستطع صلاح الدين أن يبقى على أعمال الإصلاح رغم ميله للسلم فان الظروف دعتسه أن يترك العيشة السلمية ويقبض على السيف مرة أخرى . فانه في مدة الفترة التي سبق الكلام عليها في الفقرة السابقة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي ( الثاني ) أحد المشتركين في صلح سنة ١١٧٦ م وتولى بعده أخوه عز الدين اذ لم يكن له الا ولد صبي صغير، ورأى قواد الدولة ان تولية ذلك الصغير ذات خطر خوفا من أن ينتهز صلاح الدين تلك الفرصة فيضم بلاد الجزيرة والموصل الى دولته

ثم مات الملك الصالح أيضا سنة ١١٨١ م وأوصى أن تسلم حلب الى ابن عمه عز الدين نفسه صاحب الموصل حتى لا يتمكن صلاح الدين من أخذها ، وهكذا كان بيت عماد الدين زنكي يخشى كل الحشية أن يذهب ملكه الى صلاح الدين . ومن أجل هذه الحشية كان عز الدين ومن معه من الامراء يجتهدون في اثارة المصاعب أمام منافسهم القوي حتى لا يفرغ لهم . ولكنهم دلوا بذلك على أنهم لم يفهموا ما انطوت عليه نفس ذلك الرجل فانهم لو سكتوا عنه لكان أغلب الظن أنه يدعهم حيث هم

فقد كان يقنع بأن يكون آمنا من ورائه بل أنه كان يكتفى من فتوحه في البلاد التي يحكمها حاكم مسلم بأن يخضع له ذلك الحاكم فيقره على حكمه ولا ينقص من سلطته شيئا ، أما وقد حاول هؤلاء أن يخونوه بآثارة المتاعب أمامه وتحريض أعدائه الفرنج عليه فقد رأى أنه لن يستطيع التفرغ لعمله آمنا إلا بعد أن يأمن ناحية الشمال من قلب حلب والجزيرة . وعلى ذلك نراه ابتداء بعد موت الملك الصالح بأن يضرب الضربة الفاصلة عند حدود دولته الشمالية

وقد كانت الظروف مساعدة له - لأن خلافا نشأ بين عز الدين وأخيه عماد الدين زنكى ( الثانى ) على اقتسام تلك الدولة الشمالية ، واستقر بينهما الأمر أخيرا على أن تكون حلب لعماد الدين والموصل والجزيرة لعز الدين وبهذا كان أمام صلاح الدين قوتان منقسمتان بدل دولة موحدة تقف في سبيله

خرج صلاح الدين من القاهرة في مايو سنة ١١٨٢م ( ٥٧٨هـ ) وكان ذلك آخر عهده بها فقد بقى في الشام في حربه وجهاده الى أن مات سنة ١١٩٣م ( ٥٨٩هـ ) وقد حدث أثناء وداعه حادث اتفق صدقه فانه كان في مجلس وداع ينتظر اجتماع الجيش ليسير وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من الحاضرين كأنه يودع السلطان ، وقال البيت المشهور :

تمتع من شميم عرار نجد      فما بعد العيشة من عرار

فتطير صلاح الدين منه وتنكد المجلس وقد صدق ذلك الفأل فلم يعد صلاح الدين بعد ذلك الى القاهرة حتى مات

ذهب صلاح الدين الى الشام وبدأ باغارات صغيرة على بلاد الفرنج وحاصر بيروت حصاراً قصيراً بمساعدة الاسطول المصري الذى أصبح عند ذلك قوة يعتد بها فى حروبها . غير أنه لم يلبث فى هذه المناوشات طويلاً بل قصد الى غرضه الاول وهو حرب الجزيرة فعبّر الفرات سنة ١١٨٢ م وساعده جماعة من أمراء عز الدين الموصلى ولهذا تمكن من امتلاك كثير من البلاد بغير حرب او بحرب يسيرة . وكان عز الدين قد أوعز الى الفرنج أن يهاجموا دمشق ليفرجوا عنه الا أن صلابة صلاح الدين تغلبت فبقى على حربه وحصر الموصل ، على أن مناعة المدينة جعلته يرفع حصارها ويذهب الى بلاد أقل منها مناعة مثل سنجار فملكها وبذلك صار له أغلب بلاد الجزيرة وأصبحت الموصل معزولة عن حلب وصار يستطيع أن يهبط الى كل منهما على حدة . فالتمس عز الدين مساعدة جيرانه من الأمراء مثل شاه الارمن ( وهو أمير مسلم ) ولكن ذلك لم يجده كثيراً فتفرق عنه حلفاؤه بعد قليل

واستمر صلاح الدين على تملك البلاد الجزرية وشمال الشام مثل آمد وتل خالد وعينتاب وكان انتصاره فيها كما سبق القول سهلاً فى أغلب الاحوال لميل الأمراء الى الانضواء تحت لوائه المنصور وترك جانب عز الدين

وفى أثناء هذه الانتصارات على أمراء الجزيرة وشمال الشام كانت الاساطيل المصرية فى البحر الأبيض والبحر الأحمر تحرز الانتصارات الباهرة على الفرنج حلفاء عز الدين ففى سنة

١١٨٢ م انتصر حسام الدين لؤلؤ القائد البحرى المصرى عند  
أيلة على رأس خليج العقبة ثم عند ساحل الجوزاء فى شمال  
الحجاز على جماعة من الفرنج أرسلهم البرنس أرناط ( رجنالد  
دى شاتيون ) صاحب الكرك ليوقعوا بالمسلمين الداهيين الى  
الحج وقد أخذ لؤلؤ جماعة من أسرى الفرنج وأرسلهم الى «منى»  
لينحروا بها فكان ذلك جوابا قاسيا على محاولة أرناط الفتك  
بالحجاج المسلمين . وكان الاسطول المصرى بالبحر الابيض يتربص  
بالفرنج اذا هم قربوا من سواحله وكان كثيرا ما ينقض على  
سفنهم فيأسر ويغنم حتى اضطر المسيحيون الى عقد هدنة مع  
صلاح الدين لمدة أربع سنوات تنتهى سنة ١١٨٨ م ( سنة  
٥٨٤ هـ )

وقد توجت انتصارات صلاح الدين أخيرا بتملكه حلب سنة  
١١٨٣ م أخذها من عماد الدين زنكى الثانى صاحبها على أن  
يعطيه بدلها بعض بلاد الجزيرة - وبذلك أصبح آمنا على حدوده  
الشمالية وصار عماد الدين الضعيف حاكما على غرب بلاد  
الجزيرة وهى بلاد يسهل عليه فتحها اذا أراد وأصبحت بلاد  
عماد الدين مانعا من الاصطدام بينه وبين الامير القوى الشجاع  
عز الدين صاحب الموصل

لم يجد صلاح الدين بعد ذلك صعوبة فى أخذ سائر القلاع  
الشمالية من الشام مثل حارم - وكان يقنع من أصحابها الامراء  
المسلمين بالخضوع ويصالحهم على اقرارهم على ما فى أيديهم  
بشرط أن يكون أقطاعا لهم وأن يكونوا هم وعسكرهم معه اذا  
دعاهم الى الجهاد

## آخر النضال مع الموصل

هل كان صلاح الدين ليقنع بدولته هذه ويرجع إلى مصر ليضع أساس ملك ثابت الأركان ؟ أو كان لابد له من الاستمرار على الحرب إلى نهايتها المرة ؟ لا حاجة بنا لأن نقف طويلاً مترددين عند هذا السؤال فقد كان صلاح الدين وارث دولة نور الدين وكان عليه عبء الاستمرار على جهاده مع الفرنج وما كان يقدر أن يخرج على روح العصر وينتحي وادعا مسالماً ولا يزال الخلاف بين الشرق والغرب على أشد ما يكون ولم تخب تأثيرته ، ولو أنه استطاع ذلك وقعد عن الحرب لاضطر إلى الدفاع عن دولته بعد قليل لأن الفرنج كانوا إذا شعروا بهدوء في هجومات المسلمين قاموا إلى تحقيق حلمهم القديم وهو تكوين دولة مسيحية عظيمة في أحشاء الشرق الأدنى - فكان صلاح الدين مرغماً على أن يحارب ، ولهذا رأى بعينه الثاقبة أنه لابد أن يستعد للنضال الذي جعله قصد حياته ولم يبق أمام صلاح الدين بعد ذلك إلا خطوة واحدة حتى يصبح سيد كل الدولة الإسلامية بالشام والجزيرة فيقدر أن يهوى بتلك القوة العظيمة على الصليبيين فيضربهم الضربة التي كان يستعد لها طول تلك المدة . على أنه لم ينس أن يجس المسيحيين بين حين وآخر وكان موضع جسده

حصن الكرك وفيه ذلك الفارس الشجاع ( ارناط ) ، على أنه كان كلما حاصره عرف عجزه عن أخذه مع خوفه من جانب الموصل ، وكان موقنا أنه إذا اشتبك مع المسيحيين كان النضال نضال حياة أو موت فلا يفارق أحد الجانبين عنق الآخر إلا بموت واحد منهما ، ولهذا أثر أن يبدأ بعلاج البثرة التي في جانبه قبل أن يلج باب النضال الهائل مع أعدائه المسيحيين . وهكذا ذهب إلى ميدان الموصل وقضى فيه ما بين سنة ١١٨٥ م - ١١٨٦ م ( ٥٨١ هـ - ٥٨٢ هـ ) بين حصار لتلك المدينة وانصراف عنها ثم عودة إليها . وكان جماعة من أمراء الجزيرة يصحبونه فلما قرب من الموصل أول مرة سنة ١١٨٥ م أرسل إليه عز الدين يطلب الصلح على يد جماعة من الأمراء فأرسل معهم والدته وابنة عمه نور الدين محمود سيد صلاح الدين وغيرهما من النساء النبيلات . وهناك كان كل الناس يعتقدون أن صلاح الدين لابد أن يجيب طلب هذه الوفود لما كان معروفا عنه من رقة الخلق ولاسيما مع النساء . ولما كان مشهورا عنه من إجلاله لبيت سيده نور الدين . ولكنه هذه المرة لم يعمل بما يوحيه إليه قلبه بل رأى الأمر أمر دولة يجب ألا يدخل فيه اعتبار العواطف فجمع أمراءه فأشاروا عليه برفض الرجاء وهكذا كان ، وارتكب صلاح الدين برفض طلب هذه الوفود خطأين أحدهما خلقى والآخر سياسى وإذا كان الخطأ الخلقى لا يعنى أهل السياسة فإنه على كل حال يعنى من يدرس حياة صلاح الدين الذي لا يكاد المدقق يرى شائبه في خلقه من قسوة أو نقص في

المروعة والشهامة . على أنه قد يغفر له الخطأ لو اعتبرنا الظروف التي كانت تحيط به ورأى كبار أمرائه الذين أكدوا له أن امر الدولة يجب ألا يدخل في تدبيره ضعف الرحمة أو الحفاظ .

وأما الخطأ السياسي فذلك أنه رفض الصلح وهو غير عارف تمام المعرفة بحال خصمه ، وكثيرا ما يطلب الخصم الصلح وهو قوى حتى يخلص من ويلات الحرب أو لعل الخصم يتظاهر بحب السلام لكي يضع خصمه أمام الناس موضع المعتدى الظالم فيكسب عطف العالم . وعلى كل حال فقد لقي صلاح الدين جزاء تلك الغلطة سريعا ويدلنا على حسن رأيه أنه عرف خطئه بعد قليل فعاد يلوم من أشاروا عليه بسلوك سبيل المخاشنة وتحمل لوم من لامه وقبح فعله مثل القاضي الفاضل مساعدته الكبير بمصر .

وقد نجح عز الدين بسلوكه ذلك في استنهاض همم الناس معه فساعدته عامة أهل الموصل وحاربوا مع جنوده مستبسلين . ولهذا لم يقدر صلاح الدين على أخذ المدينة وانصرف عنها مدة قضاها في بلاد الأرمن الإسلامية التي فسد أمرها بعدت موت صاحبها ( شاه أرمن ) فاستولى على ميسافارقين أكبر بلادها وحصونها وأقر أمراءها عليها بشرط أن يكونوا تبعاء له على حسب عادته كلما فتح بلدا إسلاميا . ثم رجع إلى الموصل فاستمر على حصارها وترددت الرسل بينه وبين عز الدين بالصلح فقبل أخيرا على أن يكون عز الدين تابعا له ويخطب له على منابر بلاده ويكتب اسمه على السكة وينزل له عن كل ما وراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة . وهكذا استقر الأمر أخيرا بين صلاح الدين وجاره



الشجاع عز الدين الذى يمثل البيت المجيد بيت عماد الدين زنكى . وقد حدثت فى أثناء المفاوضات حادثة تستحق أن تذكر وذلك أن صلاح الدين مرض حتى أشرف على الهلاك وكان ابن عمه محمد بن شيركوه قريبا منه وكانت له اقطاع حمص والرحبة فسار الى حمص وجعل يمهّد السبيل الى الاستيلاء على الحكم لومات صلاح الدين ولكن صلاح الدين عوفي وعرف بالخبر فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه على أثر ليلة شرب فيها كثيرا من الخمر - وتقول السنة السوء أن صلاح الدين دس اليه من قتله بالسم وهو ينادمه . والحق أن المؤرخين يظهرون فى هذه القصة كثيرا من الاحتراس فيقولون دائما « والعهد على من يقول ذلك » لانهم شاعرون أن مثل هذا العمل لا يتفق وما عرف عن صلاح الدين من الزهد فى الدنيا والتغاضى عن الاساءات - فقد كان يعرف من عدوه الغدر ثم اذا رأى نفسه قدر عليه عفا عنه ولم يخرجه بل لقد كان يحسن الى عدوه ويتغاضى عن واجب اساءته . فهل كان مثل هذا الرجل ليسم ابن عمه لانه سمع عنه خبر عزم على أن يملك البلاد لو مات ولم يفكر فى الخروج عليه ولا اضرار نار ثورة ؟

وهل كان صلاح الدين يخشى أن يجرد ابن عمه من أقطاعه لو صح عنده العزم على عقابه ؟ انه كان على رأس الدولة يطيعه أمراؤه جميعا ويحبه اهل البلاد والعسكر على السواء ، فما كان من العسير عليه أن يعاقب ابن عمه بأية عقوبة لو رآه مستحقا لهذا . ولئن كان قد خشى من اثاره ثورة بين أمرائه أو بين أفراد

أسرته لو أوقع بابن عمه أما كان يخشى أن يثير ثورة أكبر بمثل هذا الغدر وتلك الحيانة ؟ على أن صلاح الدين أثبت اقطاع محمد بن شيركوه لابنه الصغير ولو كان الأمر قد بلغ حد أن يسقى الأب السم لما كان يرعى حقه في ابنه . وقد قال ذلك الابن علنا مرة في حضرة صلاح الدين قولا يفيد أنه يتهمه بالاستيلاء على شيء من ميراثه لأن صلاح الدين كان قد أخذ للدولة أكثر آلاته وخيله وأمواله . ولو كان هناك شك في أن صلاح الدين شريك في قتل أبيه لما كان تردد وله تلك الصراحة أن يتهمه بذلك علنا . ان الظنون تذهب في الخطأ بعيدا في العادة فما بالك وقد اتفق موت الرجل المتهم بعد جنايته فجأة . انه من الطبيعي أن يظن الناس في الأمر شيئا من الأسرار ولا سيما وقد كان ذلك العصر عصر أسرار خفية كثيرة

على أن هذه القصة تلوح لنا محض رواية خيالية فيما يتعلق بابن عمه محمد بن شيركوه ولعل هناك خلطا بين الحوادث فقد ورد ذكر مثلها عن تقي الدين ابن أخي صلاح الدين وكان بمصر، وذلك أنه أثناء مرض صلاح الدين جرى من تقي الدين حركات تدل على عزمه على الاستبداد بالملك اذا مات السلطان . فلما عوفي بلغه الأمر فأرسل صديقه الفقيه عيسى الهكاري وكان مطاعا في الجند وأمره باخراج تقي الدين من مصر وأرسل في نفس الوقت الى تقي الدين يدعوه الى الحضور الى الشام فعصى تقي الدين أولا وعزم على الخروج الى برقة وكان مملوكه ( قراقوش ) قد ملكها ولكنه عدل أخيرا وذهب الى الشام

فأحسن إليه صلاح الدين وأقطعه حماه وبلادا كثيرة غيرها  
بالشام وأرمينيا ولم يعاقبه على شيء مما بدر منه بل أنه ( لم  
يظهر له شيئا مما كان )

فاذا كان هذا سلوكه مع من خالف وحاول العصيان أكون  
غدارا قاتلا مع من نوى أن يستقل ولم يتعد عمله النية ؟





## الفصل الخامس

الجهاد الأعظم



## عرض عام

دانت جميع البلاد لصالح الدين من آخر حدود النوبة جنوبا وبرقة غربا الى بلاد الارمن شمالا وبلاد الجزيرة والموصل شرقا . هذا عدا تفضيل الخليفة له واعترافه بسلطانه وذلك ليس بالامر القليل . وقد كان في ذلك مقنع لنفس ذلك الرجل لو كان يريد ملكا ونعمة ، ولكنه كان ينظر الى تلك الدولة نظرة الحارس على مافي حراسته لا يرزا منها الا مقدار اجره . ويرى ان الملك انما هو واجب عليه يؤديه بما تقتضى نفسه ويحتم شعوره بالأمانة . ولهذا كان اقل الناس تنعما بما في يده من متاع ، ولو كان صلاح الدين في غير ذلك العصر الذي وجد فيه لانشأ مدينة عظيمة في مصر والشام وحواشيها ولازال ما يعوق التقدم السلمى بما استطاع فقد كان لا يحب خوض الدماء ، وكان يكره ان يرى من يحب سفك الدماء . ومما يذكر في ذلك ان بعض صغار اولاده طلب منه مرة بعض الاسرى ليقتله فلم يرض وزجره ، ف قيل له في ذلك فقال انه يخشى على الولد ان يضرى على سفك الدماء وهو لا يميز بعد بين المقام الذى يستلزم القتل وغيره

وكانت الحرب عنده شرا لا بد منه وقد اضطر الى ان يقضى  
اكثر عمره في حروب ودماء وذلك لان روح العصر كانت تقضى  
عليه ان يكون محاربا طول عمره . فان الصليبيين اتوا من وراء  
البحار تدفعهم حماسة شبيهة بحماسة الطفولة الى فتح بيت  
المقدس والقضاء على الاسلام وقد نجحت صدمتهم الاولى في  
تكوين دولة مسيحية ولكنها لم تكن دولة بالمعنى الصحيح  
اذ كان اساسها فوق السطح غير راس على شعب في البلاد بل  
عماده جماعات تأتي بين حين وحين من وراء البحار من متحمسى  
الدين . ولكن الحماسة تخبو كما تخبو النار بعد شدتها ولكل  
عصر مشاغل وآراء والمشاغل والآراء تتغير ولهذا بدأت الموجة  
تضمحل على طول القرن الثانى عشر وفى اثناء ذلك كان المسلمون  
يرون انفسهم اهل بلاد اغار عليهم قوم من الاغراب يريدون  
سلب بيت يقدسونه هم كما يقدسونه اولئك الاغراب وثار  
عزة المسلمين من تذكر هزيمتهم امام قوم كانوا يرونهم اقل  
مدنية وادنى مكانة وهم الذين تعودوا فى تاريخهم الماضى ان  
ينتصروا على سواهم من مسيحيين وغير مسيحيين فى اكثر  
مواقفهم وكان عصر صلاح الدين لا يزال على هذه العقيدة  
التي دفعت زكى ونور الدين الى الجهاد . فكان محتوما على  
مثله ان يقود الدولة الاسلامية التي اقامها الى حيث تحرز  
انتصارا جديدا

وكان الوقت ملائما لانتصار صلاح الدين فى جهاده اكثر  
مما كان فى مدة من سبقه فان زكى كان اميرا صغيرا يحاول



صدم قوة المسيحيين في عثفوانها وكان نور الدين يحارب  
المسيحيين وهم لا يزالون محتفظين بكثير من قوتهم وزادوا  
عليها في النصف الأول من القرن الثاني عشر أن كونوا فرقتي  
الفرسان الرهبان وهما الداوية ( فرقة المعبد أو التمبل )  
والاسبتارية ( فرقة الهسبتاليين أو القديس يوحنا ) . وكان  
فرسان هاتين الفرقتين من أكثر المحاربين شجاعة في الحرب  
وحماسة للدين . ولهذا كانوا شديدي الوطأة في حروب  
المسلمين

فلما أتى عصر صلاح الدين في أواخر القرن الثاني عشر كان  
المسيحيون قد أنهكهم طول الحرب مع المسلمين نحو نصف قرن  
أو يزيد وكان من يأتي من وراء البحار لمداد الصليبيين بالشام  
لا يعوض من يفقد منهم أو على الأقل لم يكن الجديد مثل  
القديم نجدة ودربة . وزيادة على ذلك قد دب الفساد في داخل  
الحكم وأصبح ملك بيت المقدس مثل أي ملك آخر اذا تقادم العهد  
على من بنوه ، تتنازعه الدسائس والأغراض وكانت بقية بيت  
الملك في أيام صلاح الدين الأخيرة محصورة في ( بلدوين الرابع )  
أولا ( وبلدوين الخامس ) ثانيا ، وكان الأول مصابا بداء الجذام  
ضعيفا لا يستطيع شيئا ، وكان الثاني في يد أم لم يشهد  
التاريخ كثيرا مثلها غلظة ولا دناءة . وتشاحن الأمراء على  
الوصاية وكان أجدر هؤلاء الأمراء وأشجعهم ( ريمون ) صاحب  
طرابلس — إلا أنه بعد وصايته مدة عزل وتولى بعده رجل  
أحبته الملكة أم بلدوين الخامس . واسمه عند العرب ( كى )

وهو ( جى دى لوسنيان ) ولم يلبث الطفل بلدوين ان مات  
ويقال ان امه قتلتها

ومن ذلك الوقت بدأ التنافس يتخذ شكلا جديدا - فان  
( كى ) كان من أجمل الناس ظاهرا وادنتهم حقيقة حتى ان  
اخاه قال مرة : « اذا كان هذا ملكا فما اجدرنى ان اكون الها »  
وكان من الطبيعى ان كبار الامراء بالشام يحقدون عليه واكبرهم  
( ريمون ) الطرابلسى . والحقد يدفع الى شئ كثير حتى الى  
الخيانة ولهذا يلوح لنا ان ريمون بدا يرأس المسلمين وكانت  
له يد فى انهزام المسيحيين

الى جانب ريمون كان ارناط ( رجنالد او ارنولد دى شاتيون )  
صاحب الكرك وهو رجل من أشجع فرسان المسيحيين ولكنه  
كان غرا متهورا غدارا - فاذا كانت خيانة ريمون ساعدت  
المسلمين بتوطئة سبيل النصر لهم فان غدر ارناط وتهورة  
قد ساعدا صلاح الدين اذ جعل الحق الى جانبه وقديما كان  
الحق قوة للمعتدى عليه ولو بعد حين

## موقعة حطين

اذا كان صلاح الدين قد فرغ من مشاغل دولته ودانت له الامارات الاسلامية جميعا فجمع كل تلك القوة الهائلة بين يديه واستعد ليقذف بها الصليبيين فيرميهم وراء البحر الذي اتوا منه ، فان الصليبيين في الناحية الاخرى كانوا على قلق كبير يريدون ان يقوضوا ذلك البناء المخيف الذي علا الى جانبهم يهدد وجودهم بالشام ، وكان جماعة من امرائهم يدفعهم الخطر الداهم الى الاستبسال والاستماتة في النضال . وكان من هؤلاء البرنس ارناط صاحب الكرك

والى جانب ارناط كان فرسان الداوية والاسبتارية يتحرقون شوقا الى لقاء المسلمين لعلمهم يستطيعون بهجماتهم العنيفة صدع دولة صلاح الدين . فكان بذلك المسلمون والمسيحيون على السواء متحفزين للوثوب بحماسة متشابهة وكان ما بينهما جو من التحدى مملوء بالمادة الملهبة تنتظر اول شرارة ليندلع لهيبها فيلتهم كل شيء . ولنذكر ان هدنة سنة ١١٨٤ م التي كان اجلها الى سنة ١١٨٨ م كانت لا تزال قائمة في سنة ١١٨٧ م لم يكن ارناط حديث عهد بعداوة المسلمين فقد كانت جنوده تهوى على الحاج والتاجر ، واساطيله تسير في البحر الاحمر

تلتبس الفريسة الاسلامية ، ولكتنا رأينا أنه لم يجد في تصيده  
الا ما لا يصاد من ذوى شوكة حادة أو ناب قاطع . وكان هدنة  
سنة ١١٨٤ م طالت به فدفعه تهوره الى خرقها وكان صلاح  
الدين لا ينتظر الا ذلك القدر منه ليبدأ بجهاده الذى استعد له  
سارت قافلة قيل أن فيها ابنة السلطان وشيء كثير من المال  
وكانت القوافل تجتاز بقلعته غير خائفة واثقة من العهد الذى  
بينه وبين السلطان . فأهوى ارناط الى تلك القافلة وغنم منها  
وقتل وأسر . فلما بلغ خبر ذلك الى صلاح الدين ثار ثورة  
مشروعة ولم يرضه ارناط كما كان ينبغى ، فنذر السلطان أن  
يقتله بيده لو ظفر به وكانت تلك الحادثة هى الشرارة التى  
اشعلت نار الحرب التى استمرت ست سنوات ، كانت اعلام  
صلاح الدين تخفق بعدها على القدس وجميع بلاد الشام ، الا  
بضعة بلاد على الساحل

ارسل صلاح الدين يجمع الجيوش فى ربيع سنة ١١٨٧ م وجعل  
مركز القيادة العليا دمشق فاتته الجنود من أطراف دولته وكان  
أول بعوثة اثنين : جعل أحدهما الى الكرك بقيادته هو للانتقام  
ومنع ارناط من مهاجمة الحاج والوقوف فى سبيل العسكر  
المصرى القادم اليه ، وارسل الآخر الى عكا لى يشغل الداوية  
والاستبارية عن مساعدة الكرك . وقد نجح فى احراز غرضه  
من هذين البعثين نجاحا تاما . ومما يجدر بالذكر أن ريمون  
لم يتحرك اثناء هذا للمساعدة

فلما تكامل الجيش الاسلامى فى الصيف كان أمام صلاح الدين

خطتان : الأولى أن يقف أمام الصليبيين في معركة فاصلة ،  
والثانية أن يتابع الخطة القديمة من اغارات متكررة ونهب  
وسبى بغير معركة فاصلة حتى يضعف أعداءه أولا ثم يضرب  
الضربة القاضية أخيرا ، ولكنه فضل الخطة الأولى ولعل أكبر  
ما دفعه الى اختيارها شدة حماسه فقد قال مرة : « ان  
الامور لا تجرى بحكم الانسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا  
ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد »

وهكذا سار الى طبرية في يوم الجمعة السابع عشر من ربيع  
الآخر سنة ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يولييه سنة ١١٨٧ م وكان يتخير  
لغزواته أيام الجمعة « لتقع حروبه في وقت تكثر فيه الدعوات  
والصلوات » . ثم خلف طبرية وراء ظهره وسار الى غربها  
عندما علم ان الجموع الصليبية جاءت ووقفت له عند جبل  
طبرية من جهة الغرب . ولكن الصليبيين لم يبرزوا له وتحصنوا  
في مواقعهم ، فأراد ان يحرضهم على لقائه فجعل يهبط الى  
طبرية فيخرب فيها ويغنم ويحرق . وكان قصده من مهاجمة  
المدينة ان ينفر الجيش الصليبي لمساعدتها فيخرج من أماكنه  
فيلقاه صلاح الدين في ميدان مفتوح وقد نجح في ذلك نجاحا  
تاماً فان الصليبيين تحركوا لنجدة طبرية فعاد صلاح الدين  
مسرعا عنها وجعل جيشه على الماء وأقنى مآلما من ماء  
الصهاريج وكان الوقت قيظ الصيف فلما أقبل المسيحيون لم  
يقدرُوا على بلوغ الماء الذي وراء المسلمين ولم يجدوا في الصهاريج  
التي دونهم ماء فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش

والحر ، ولم يستطيعوا الرجوع الى حيث كانوا خوفا من جيش المسلمين . فكان هذا انتصارا لصالح الدين قبل ان يضرب ضربة واحدة ، وعلت نفس جنود المسلمين ووثقوا بالنصر قبل اللقاء ، فباتوا الليلة في تكبر وتهليل بينما كان قائدهم المدرب الذكى الحذر يراقب نظام جيشه ويوقف كل جماعة في مكانها استعدادا للمصاف في الغد

وحاول المسيحيون في اليوم التالى بلوغ الماء كلفهم ذلك ما كلفهم ، فمنعهم صلاح الدين من ذلك اذ أدرك قصدهم . وجعل يدور بهم حتى حصرهم حصارا تاما ، ولم يتمكن أحد من الخروج من تلك الدائرة الا ( القمص ريمون ) في جماعة قليلة وكان خروجهم من دائرة الحصار مكيدة دبرها ابن اخى صلاح الدين ، وذلك انه رأى ان قتال ( ريمون ) وجنوده قتال المستميت فأفسح لهم حتى أخرجهم من الدائرة فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصرا ثم مالبت دائرة الحصار بعد ذلك ان التامت فلم يجد ريمون امامه غير ترك الميدان والذهاب عن الحرب جملة وضعفت صفوف الصليبيين بذلك النقص في عدد المحاربين

وبدأت منذ ذلك الحين الهزيمة - غير ان المحصورين احتلوا تلا عند حطين وتحصنوا به مع ملكهم ( كى ) وابلوا بلاء عظيما في الدفاع عن انفسهم . وكان المسلمون يكرون عليهم بين حين وآخر فتعود الجنود منحدره عن التل وهى تحمل من الأسرى والاسلاب شيئا كثيرا وكان من بين ماغنموه صليب الصليوت،

وكان السلطان يبعث مافى نفسه من حماسة وثبات الى قلوب المحاربين فكانوا تحت عينيه يأتون بالعجائب من أعمال الشجاعة والاقدام ومثل ذلك ان واحدا من صفار مماليكه اخذته الحماسة عند رؤية سيده وقائده وهو صبي لم يبلغ حد الرجولة فحمل حملة منكرة على الفرنج وهو وحده فأوقع فيهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه فلما رآه المسلمون يفعل ذلك أخذتهم الحفيظة لقتله وثاروا ثورة فصدموا جيش الفرنج صدمة زعزعتهم وبعد استمرار الهجمات العنيفة حينا هوت خيمة الملك بعد كرات ثلاثة واستأسر من بقى من الفرسان ، وكان النصر تاما لصالح الدين وجنده وسجد شكرا لله وبكى من السرور . وكان بين الأسرى الكثيرين فى هذه الموقعة الملك ( كى ) والبرنس ( ارناط )

« وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى فاذا رأى القتلى حسب انه لم يكن هناك أسرى »

وقد اكرم صلاح الدين الملك وقدم اليه ماء مثلجا بعد ما وجد من جهد العطش والدفاع فشرب الملك وأعطى فضله للبرنس ارناط ، فقال صلاح الدين عند ذلك : « ان هذا لم يشرب الماء باذننى » يريد انه لم يصر آمنا من عقابه . وكان اكرامه للملك لا يعادله شىء الا تقريعه للامير الذى اثار تلك النيران وهو ( ارناط ) الغادر ، فقال له : « هأنا أنتصر لمحمد » وكان ذلك ردا على سب ( ارناط ) لمحمد ودينه فيما سبق . ثم عرض عليه الاسلام فكان ذلك سخرى بليغا ، ولكن الرجل

ابى فسل صلاح الدين النمجاة وضربه بها فحل كتفه وتمم عليه من حضر وبذلك أوفى بنذره الذى سبق أن نذره اذا هو ظفر بعدوه أن يقتله بيده عقابا لما قدم من نقض العهد . وقد اشتد خوف الملك عند ذلك وعظم اضطرابه فأمنه صلاح الدين وسكن جأشه قائلا : « لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك وأما هذا فانه تجاوز حده فجرى ماجرى » يشير بذلك الى ارناط . وأما ريمون صاحب طرابلس فقد عاد بعد انهزامه من الموقعة الى صور ثم الى طرابلس حيث مات بعد أيام قلائل

### فتح القدس

بعد موقعة حطين التى دامت يومين لم يبق صلاح الدين فى مكانه بل هبط الى طبرية فى اليوم الثالث وهناك سلمت له القلعة وفى أثناء ذلك كان يبعث بمن يريد الإبقاء عليهم من الأسرى الى دمشق ويفتك بمن يريد الفتك بهم وكانت يده شديدة على طوائف الفرسان الرهبان « الداوية والاسبتارية » وذلك لما كانوا يبذلون من نفوسهم فى سبيل نصر المسيح بشدة تدعمها حماسة عظيمة وإيمان قوى فى عقيدتهم . ولم يلبث صلاح الدين طويلا عند طبرية بل سار الى الغرب نحو عكا فلم يبق امامها الا قليلا حتى سلمت وهكذا كان انتصار حطين يسبق صلاح الدين الى المدن فتسلم واحدة فواحدة وهى قوية على المقاومة . ومما يسترعى النظر ان صلاح الدين أعطى كل ما للداوية فى عكا لرجل من أصحابه كان على طريقة الفرسان المحاربين اذ كان فقيها محاربا وذلك هو الفقيه عيسى الهكارى



صديقه القديم . وكانت غنائم عكا عظيمة أفادت جنود صلاح الدين ولو أن السلطان نفسه لم يأخذ منها شيئاً ، دابه فيما كان يفنمه في انتصاراته دائماً

وبعد اخذ عكا اندفع تيار النصر بازاء الساحل فأخذ المسلمون كثيراً من مدنها من يافا الى مابعد بيروت واجتمعت فلول الجيوش الصليبية وجند الحصون الساحلية جميعها الى صور وهناك تحصنوا ووقفوا على اقدامهم مرة ثانية بعد أن جرفهم سيل الهزيمة ، وأتى اليهم امداد من وراء البحر بقيادة من يسميه العرب ( المركيش ) وهو ( كتراد دي منتفرا ) فقوى ذلك عزمهم على الدفاع

وكان صلاح الدين قد عقد النية على أخذ عاصمة الصليبيين ( بيت المقدس ) فبعد أن رأى الوية النصر تخفق له على السواحل ورأى الثغور تتفتح لجيوشه بلامقاومة غير مدينة صور التي بدأت تتحصن وتتجهز ، سار الى قلب فلسطين وأخذ كل ما كان بين بيت المقدس والساحل من حصون الداوية وأوقف على البحر رجلاً من كبار قواده على رأس اسطول لكى يمنع اتيان الفرنج الى الساحل قبالة القدس وذلك القائد البحرى هو حسام الدين لؤلؤ المعروف بالشجاعة ويمن النقية . فلما أمن هذه الناحية من البحر القى الحصار على العاصمة وعرض على أهلها الصلح على أن يسلموا اليه المدينة نظير تعويضهم أرضاً يزرعونها، ولكنهم أبوا ذلك فاستعد لآخذ المدينة عنوة ، وجعل يلتمس في أسوارها نقطة ضعف

يهاجمها حتى وجدها بعد فحص دقيق قضى فيه خمسة ايام . وكانت نقطة الضعف التى اختارها جهة الشمال عند المكان المعروف بباب كنيسة صهيون . وكانت الجموع فى بيت المقدس كبيرة والحماسة للدفاع ثائرة ، فآثر صلاح الدين الاستعداد بما معه من قوة لآخذ المدينة سريعا قبل أن يفىق عدوه من الضربات التى توالى عليه منذ وقعة حطين ، وقبل أن يأتى امداد متوقع من وراء البحر . فنصب المنجنيقات ونظم الرماة فوصلت جنوده الى الأسوار وتقبوا فيها ثغرات ، وكانوا يظهرون فى هجومهم من البسالة مالا يعادله شىء غير بسالة المحصورين أنفسهم اذ كانوا يخرجون كل يوم على خيلهم يقاتلون مستبسلين . وكان الأمراء فى جيشى المسلمين والفرنج سواء فى الاقدام يحاربون فى أول الصفوف ويبعثون فى الناس الحماسة بمثلهم الحسن . وكان مقتل أحد الأمراء يدعو دائما الى ثورة فى نفوس الجند يتردد لها صدى قوى فى اشتداد لهيب الحرب . غير أن ذلك التصادم لم يدم أكثر من أسبوع واحد ورأى المحصورون أن لا أمل لهم فى النجاة ، فأرسلوا الى صلاح الدين يفأوضونه فى شروط التسليم ، فتمنع أولا وقال انه لن يرضى بغير آخذ المدينة عنوة ليفعل بالفرنج نظير ما فعلوه بالمسلمين يوم أن استولوا على القدس منذ نحو قرن ، ولكنه عاد فرضى بالصلح بعد آخذ ورد طويلين ، واتفق على شروط التسليم وأكبرها أن يدفع المسيحيون ضريبة عشرة دنائير عن الرجل وخمسة عن المرأة واثنين عن الطفل ، فمن أدى ذلك

في مدة اربعين يوما خرج ونجا ومن لم يؤده صار اسيرا  
مملوكا . على انه سمح لليونان واهل الشام من المسيحيين  
ان يبقوا حيث هم بين رعاياه ، وكذلك اباح للفرنج ان يقيموا  
في فلسطين اذ شاءوا ، وبدأ تسليم المدينة وخروج من يريد  
منها في اكتوبر سنة ١١٨٧ م . على ان صلاح الدين لم يصب  
مالا كثيرا من وراء فداء اسرى بيت المقدس فقد ذهب اكثره  
لامراء الجند الذين وقفوا على الابواب يراقبون دفع الضريبة  
ممن يخرج . وقد اطلق صلاح الدين عددا كبيرا من اهل  
المدينة بغير فداء ، ومن على نحو ثمانية عشر الف رجل نظير  
ثلاثين الف دينار وزنها عنهم امير من امراء المسيحيين ، وبقي  
بعد ذلك عدد عظيم لا يستطيع ان يعطى شيئا وكانوا نحو  
سنة عشر الفا ، فتسامح صلاح الدين تسامحا كبيرا في امرهم  
وكان كثير العفو عن نساء الفرنج وشيوخهم واطفالهم خاصة ،  
فاطلق للملكة بيت المقدس مالها وحشمها لم ينل من ذلك شيئا ،  
وكذلك فعل بغيرها من كبيرات الفرنج ومن بينهن امرأة  
( ارناط ) نفسه ، واكرم رجال الدين فخرج كبيرهم مع امواله  
وتحف الكنائس وكنوز ذات قيمة عظيمة فلم يرض ان يتعرض  
له بل اخذ منه العشرة دنائير المفروضة وسير مع الجميع من  
يحميهم الى مدينة صور

وقد بلغ عدد من دفع عنهم صلاح الدين الفداء نحو عشرة  
آلاف نفس عدا من اطلقهم اخوه سيف الدين الكريم ، ورأى  
جماعة من المسيحيين وهم خارجون يحملون على اكتافهم من

يعجز عن السر لسنه أو ضعفه ، ففرق فيهم مقدارا عظيما  
من المال وحمل بعضهم على دواب من عنده . وقد أظهر صلاح  
الدين من التكرم ورقة القلب في هذا الفتح ما يجعلنا نرى حقيقة  
نفسه واضحة فانه أبى أن يغدر بأحد من فرنج بيت المقدس  
ولو عظم الداعى الى القدر وكان لا يعميه تعصب للاسلام عن  
الرحمة بمن كانوا في صفوف أعدائه ، بل كان يرحم المتألم  
وتأخذه الشفقة بالضعيف من امرأة أو طفل تجمعهم به روابط  
الانسانية

ولهذا يظهر لنا في ذلك الموقف بطلا ينصر جانبا مظلوما على  
من اعتدى عليه ولم يكن بالقائد الأعمى المندفع الى القتل  
والعداوة بفريزة القسوة والحقد ، فكان في ذلك تقيضا واضحا  
لما كان عليه الصليبيون عند فتح بيت المقدس سنة  
١٠٩٨ م

وبعد أن انتهى خروج من أراد الخروج من المدينة دخل  
بجيشه اليها منصورا وكان ذلك يوم الجمعة السابع والعشرين  
من رجب سنة ٥٨٢ هـ . وجعل يصلح ما أفسده الحرب  
والحصار وبدأ فيها الإصلاح بأنواعه فأعاد الابنية الى أصلها  
بعد أن كان الصليبيون حوروها فيها بحسب أذواقهم وحاجات  
تعبدتهم وأقبل على المسجد الأقصى فأرجعه الى حاله الأولى  
وجعل فيه منبرا كان قد أعده نور الدين محمود بعناية كبرى  
لينصب بالبيت المقدس اذا فتحه « فكان بين عمل المنبر  
وحمله ما يزيد على عشرين سنة » ثم جعل يحسن المسجد

وينمق فيه بأنواع النقوش والفرش بالرخام الثمين والتمويه بالذهب ثم اقبل على الاصلاح الاجتماعى جاعلا المدارس محل الأساس من البناء سيرا على سنته التى اتبعها فى مصر . وبعد ان قضى زمنا يسيرا فى الاعمال السلمية والاصلاح ذهب الى اتمام عمله فى الحرب فقصده الى صور

### حصار صور ورفعہ وفتوح

سنة ١١٨٨ م - ٥٨٤ هـ

كانت صور حصينة بموضعها وزادها منعة ما قام به المركيش ( كتراد ) من حفر الخندق حولها حتى أصبحت كالجزيرة ، وكانت مثل الكف أو الرأس بارزة فى البحر ويصلها بالساحل طريق كالعنق أو كالساعد وكانت الحرب عند ذلك العنق المتصل بالساحل من أشق الأمور على المسلمين اذ كانت الجنود تحاربهم من المدينة أمامهم والسفن تحاربهم من البحر من جانبى العنق . فرأى صلاح الدين انه لا يستطيع اخذ المدينة الا بمساعدة الأسطول فأرسل الى أسطوله المصرى لذلك الغرض ، ولكن قلة عدد السفن التى أتت مكنت الصليبيين من هزيمة المهاجمين ، وبذلك رأى صلاح الدين ان يترك حصارها ، وكان هذا الخذلان مشددا لعزائم الفرنج بعد انهزامهم الكبير عقب حطين . وقد قضى الشتاء من عام ١١٨٧ م فى راحة من الحرب فلما بدأ الربيع من عام سنة ١١٨٨ م كان عليه ان يعود الى الحرب وقد تنفس عدوه راحة مدة طويلة

وفى اوائل سنة ١١٨٨ م - ٥٨٤ هـ . قام ببعض غزوات

انتصر فيها انتصارات صغيرة وكانت نتيجتها زيادة تمكنه من الساحل ودخوله الى الاقليم التابع لانطاكية ، وكذلك زيادة تمكنه من الاقليم الواقع بين بيت المقدس والبحر ، وكان لا يزال به بقايا حصون الداوية والاسبتارية ابطال الصليبيين . وقد انتهت حرب اول سنة ١١٨٨ م بهدنة مع امير انطاكية (بوهمند) وهو اكبر الأمراء الباقين من دولة الصليبيين . وكان شرط الهدنة لمدة ثمانية شهور نظير أن يطلق بوهمند من عنده من الاسرى . وكان غرض ( بوهمند ) أن تأتي اليه بعد تلك الفترة مساعدة من أوروبا كما كان غرض صلاح الدين التفرغ للميدان الجنوبي ، فلذهب توا اليه لمساعدة الجيوش المحاصرة لقلاعه وفتح اكبر ما بقى من تلك القلاع وهى الكرك والشوبك وصفد وكوكب . وكان صلاح الدين كلما فتح بلدا من تلك البلاد تسليما بغير حرب اذن لاصحابها بالرحيل عنها وكانوا جميعا يختارون مدينة صور . وقد لام كثيرون تلك السياسة وقالوا انها كانت غلطة من صلاح الدين وقصر في النظر اذ مهد السبيل الى جمع عدد عظيم من المحاربين في مدينة صور وبذلك خلق لنفسه قلعة حصينة معادية له على الساحل تستطيع مقاومتها بمن رحل اليها ، ولكننا يجب الا ننسى انه عندما اوسع صدره لكل من يسلم وابعاح ذهاب من احب الى مدينة صور ، قد شجع اعداءه على التسليم بغير حرب وقلل بذلك من ضحايا القتال

وكذلك يجب الا ننسى انه كسب بسياسته شيئا كبيرا وهو

تطهر الداخل من أعدائه وحشدهم جميعا في جهة واحدة على الساحل ، والحصون الداخلة في البلاد لاشك اشد خطرا لو بقيت على المقاومة من حصون الساحل لأن الاولى تتخلل دولته وتهدد كل حركاته . وأما حصون الساحل فيمكن الوقوف دونها ومنع من فيها من ولوج البلاد مع شيء من المراقبة الدقيقة ولا يستطيع قوم البقاء في الساحل الا مع استمرار الامداد وتوالي النجذات من الخارج وهذا لا يمكن بقاءه الى الابد اذ ان حماسة القوم لا بد تخبو متى ادركوا ان موقفهم غير طبيعي ولا ينتظر منه نجاح . فكأنه كان واثقا ان دفاع صور لن يدوم بل لا بد من سقوطها متى طال عليها الزمن وانقطع عنها ما يكفيها من الاقوات والامداد من الخارج ولعل هذا يبرر خطته التي يلوح على ظاهرها أنها كانت غير سديدة







## الفصل السادس

سقوط عكا



## الحملة الصليبية الثالثة

لقد مر نحو قرن على الهزة العظيمة التي اهتزتها أوروبا أيام البابا ( اربانوس الثاني ) وذهبت أجيال من الناس بعد ما سمعوا خطابات الناسك بطرس يستفز الى تخليص بيت المقدس من المسلمين ونصرة الصليب . وقد اتى ذلك القرن الذى مر منذ تلك الأيام بتغير عظيم فى أوروبا فكانت الحياة الجديدة تتمشى فى شعوبها وكانت فوضى نظام الاقطاع تكاد تنجلي غبرتها عن حكومات جديدة وكانت عقول اهلها تستقبل العلم القديم الذى اندثر ودفن قرونا عدة وهى تحسبه شيئاً جديداً فأخذت تتذوق لذته . ولكن مع كل هذا التغير بقى فى أوروبا شيء كبير من الدافع الأول الى نصرته الدين . ونشأت منه حملة جديدة وهى المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة وانا لنلمح فيها اثر التفسير الذى طرأ على أوروبا ولو ان الظواهر كلها تخدع وتفهم الناظر السطحى ان هزة أوروبا فى اواخر القرن الثانى عشر هى نفسها التى اهتزتها من قبل فى اواخر القرن الحادى عشر

ماكانت تنقضى سنة من القرن الثانى عشر منذ سنة ١١٠٠ م

بغير أن ترد الى الشام وفود من الحجاج المتحمسين بعضهم رجل مسن او امرأة عجوز او طفل صغير وبعضهم شاب او كهل يلتهب شوقا أن يجد الشهادة في البلاد الطاهرة وهو يقتل المسلمين ، غير أن تلك الوفود ماكانت في العادة تأتي للحرب قصدا بل كانت اذا وجدت حربا اشترك من يقدر من رجالها وشبهاتها فيها وكانت الحروب لاتفتر سنة واحدة لاسيما بعد ان نبغ عماد الدين زنكي اتابك الموصل ، وبدا سيرة جهاد طويل استمر فيه ابنه نور الدين محمود وتلقى من بعدهما سيف الجهاد صلاح الدين

غير أن بعض الحوادث كانت تثير في أوروبا حماسة فوق المعتادة فعندما أخذ الشهيد عماد الدين مدينة ( الرها ) ثارت في أوروبا ثورة أججها بعض نوابغ رجال الدين مثل القديس ( سان برنار ) وكانت نتيجتها حملة عظيمة يعدها التاريخ ( الحملة الثانية ) متجاهلا ماكان بين الحملة الاولى وبينها من وفود الحجاج والامداد العسكرية التي كانت كما قدمنا تفد بين حين وحين الى الشام . وكذلك ماحدث في اواخر القرن الثاني عشر ، فقد كانت الجنود تتوالى في مجيئها الى الشام لنصرة جنود المسيح بالشام أو للأغارة على مصر بعد ان أصبحت قاعدة دولة صلاح الدين ، ولكن التاريخ لايسمى هذه الحملات والامداد بل يمر بها لايعدها

فلما سقط بيت المقدس في يد صلاح الدين بعد وقعة حطين وما تلا ذلك من الانتصار على الساحل وفي الداخل ، قامت



ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا

( الانتار )

قيامه من عويل واستصراخ فى أوربا وأجج رجال الدين النيران كما كانت العادة دائما اذ كانوا أكثر الناس تحمسا للحرب وتخليص بيت المقدس من يد أعداء المسيح ، وبالغوا فى استنهاض الهمم وإثارة النفوس حتى غضب للدين مئات الآلاف وقام على رأسهم أمراء وملوك وكانت على أثر هذا حرب عظيمة يسميها التاريخ الحرب الثالثة . ويحسن بنا أن نمر سريعا على ذكر الوفود الكثيرة التى بادرت للنجدة آتية من بلاد مختلفة من بلاد البحر الأبيض المتوسط فى الجنوب الى بلاد الدانمرك والفلندر فى شمال أوروبا

ولكن لا بد لنا من شيء من الإطالة عند ذكر ملوك ثلاثة جاءوا متأخرين بعد هذه الوفود يلبون دعوة المستصرخين ، وهم الامبراطور ( فردريك ) المعروف بلقب ( برباروسا ) امبراطور الدولة الرومانية ويسميه العرب ملك الألمان ، والملك ريكارد ( قلب الأسد ) ملك إنجلترا ويطلق عليه العرب اسم ( الانكثير أو الانكتار أو الانكلتار ) ( وفيليب أوجوست ) ملك فرنسا ويطلق عليه العرب اسم ( الفرنسيس ) . أما فردريك فقد كان امبراطورا على دولة عظيمة تشمل ولايات ألمانيا من الشمال وبلاد نهر الرين من الغرب وإيطاليا من الجنوب وكانت فى بلاده مشاغل كثيرة أكبرها مسألتان عظيمتان الأولى نضاله مع أمرائه الاقطاعيين والثانية نضاله مع الرئيس الدينى وهو البابا . وقد تجح فردريك نجاحا لا بأس به مع أمراء ألمانيا الذين كان نفوذهم قبل توليته زاد زيادة تضاعف الى جانبها سلطان الامبراطور ،



الفرنسيس ( فيليب اوجست ملك فرنسا )

وبعد نضال دام سنين طويلة أمكنه أن يعلى اسم الحكومة المركزية ودان له أكبر أمراء الدولة . ولكنه لم يلق مثل هذا النجاح فى نضاله مع البابا فقد ادى النضال الى حرب كانت سجالا بين الجانبين وانتهى أمره بأن سوى الأمر وتصالح الرئيس الدينى مع الرئيس الدنيوى وكان من شروط الصلح أن يتفق الاثنان على من يعاديهما

ولعل أكبر من كان عدوا فى نظر البابا ونظر هذا العصر هو الاسلام حيث كان سواء فى الشرق أو فى الغرب فكان الامبراطور يحب أن يقوم الى حرب المسلمين لكى يعلى من شأن نفسه ويزيد من هيئته وسلطانه وكان البابا كذلك يحب أن تنصرف قوة الامبراطورية الى حرب دينية يصدر الناس ويردون فيها عن كلمته هو اذ كان لا يدفع ولا ينازع فى رئاسة الدين

ألا يلمح الانسان فى هذه الحرب الصليبية دافعا غير الدين والحماسة له والاخلاص للجهاد فى سبيل المسيح ؟ انا لانستطيع أن نتجاهل الفرق العظيم بين الحالة النفسية فى عصرى الحملة الاولى والحملة الثالثة . فقد قامت الحملة الاولى تلبية لدعوة الكسيوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية وهو مخالف لغرب أوروبا فى الدين ولكن حماسة العصر وفكرة الدين غلبت كل شىء فى سبيلها

وأما الحرب الثالثة فلم تكن حماستها الدينية مثل الحماسة الاولى بل دخلتها عناصر دنيوية اخرى

وها نحن نرى للبابا غرضا من تشجيعها وللإمبراطور كذلك



غرضاً غير وجه الدين والدفاع عنه

وأما ( الانكتار ) ريكارد فقد كان ملك انجلترا ولو أنه لم يقيم في تلك البلاد ويسميه قومه بالملك الغائب وكان من سلالة امتزج فيها دمان : الاول دم الترممان أبناء وليم الفاتح الذي غزا انجلترا في القرن الحادى عشر، والثانى دم الفرنسيين أمراء انجو وكان هناك في ذلك الوقت نضال كبير بين ملوك انجلترا وملوك فرنسا على كثير من ولايات فرنسا كل منهما يدعى فيها حقاً ولكن في مدة ( فيليب أوجست ) و ( ريكارد ) بدأت كفة فرنسا ترجح وجعلت انجلترا تسير في اول طريق نموها الطبيعى وهو تكوين قومية منعزلة في جزائرها وانماء نظامها الدستورى تدريجاً على يد أمرائها الذين بدؤوا يعدون انجلترا بلادهم بعد أن كانت نظرتهم الى فرنسا أولاً انها منشؤهم ووطنهم . وكان ريكارد من أشجع الناس على أنه كان من أغلظهم كبداً ولم يكن بالقديس ولا الذى يعبأ بأمر الدين كثيراً فذهب الى الحرب الصليبية محارباً بيده (باطته) أو رمحه ومعه رماته وفرسانه وهم يلتمسون جميعاً فى الشام النصر والمجد الذى التمسه أجدادهم فى ميادين أخرى . ولكن ميدان ذلك الوقت كان مع المسلمين فى الشام

وأما (الفرنسيس) ( فيليب أوجست ) فقد كان من سلالة الاسرة الفرنسية الكبيرة التى أولها ( هيو كاييه ) وقامت فى فرنسا على انقاض دولة أبناء ( شارلمان ) ، وكانت مدة اسرة ( هيو كاييه ) يشغلها نضال دموى بين الامراء الاقطاعيين وبين

بيت الملك وكان الانتصار فى أول الامر للامراء حتى لم يكن للأوائل من بيت ( كاييه ) الا ملك اسمى ، ولكن بدأت الكفه ترجح الى جانب الحكومة المركزية وأخذ الملوك يزدون من نفوذهم وملكهم حتى جاء فيليب اوجست فكان من اكبر من عملوا على اضعاف شوكة الامراء وزيادة نفوذ الملك . وكان انتصاره على أمراءه بفرنسا وعلى منازعيه ملوك انجلترا مما جعله من أكبر ملوك أوروبا الذين توجه اليهم الدعوات اذا ازمة ازمت ولهذا قام فيليب الى نصره الصليبيين بالشام بعد أن هدأ له الامر فى داخل بلاده . غير أنه ما كان ينظر الى الحرب الا نظرة ملك عظيم يجب عليه ألا يتخلف عن مهمة تحرك لها غيره من العظماء ولن يلبث أن يعود الى بلاده التى كانت فى نظره محل أداء واجبه وليس بلاد الشام

كل ذلك يظهر لنا أن الذين كانوا زعماء الحرب الصليبية الثالثة لم يهبوا هبة مضطربة صاخبة مثل هبة الحرب الاولى بل ساروا لغرض مدبر وقصد معين . كل يرمى من ناحيته الى هدف يبغي أن يصيبه .

على أننا لا نقدر أن نقول أن الحماسة كانت غير متأججة فى نفوس المحاربين ، فان الحماسة بين عامة الجند كانت عظيمة ثائرة للجرح الجديد وهو الاستيلاء على بيت المقدس وسواه من البلاد التى كانت للمسيحيين مدة قرن ثم استولى المسلمون عليها ، ولكن تلك الحماسة لم تكن بها شدة الحماسة الاولى ولا مرارتها

ولا يسعنا اذا راينا ما تخلل تلك الحرب الثالثة من المداعبات  
بين المسلمين والمسيحيين ومن المزاح أحيانا ، وما كان بين  
ملوك هؤلاء وأولئك من التقدير والتفاهم أحيانا والاجلال  
المتبادل - نقول لا يسعنا اذا راينا ذلك الا ان نعد تلك الحرب  
ميدانا للمسابقة بين الشرق والغرب كل يريد أن يظهر صلاحه  
وقوته فلم تكن كلمة اليوم بها مثل كلمة اليوم في الحرب الاولى:  
ليس بينى وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب



## حصار عكا

اجتمع من اجتمع من الفرنج فى صور وأوقف صلاح الدين تجاههم جماعة من رجاله يراقبونهم . وكان يعرف أنه قد ارتكب شرا بسماحه للفرنج أن يذهبوا الى صور من كل جانب ولكنه فى الوقت ذاته كان مضطرا الى ذلك بحكم السياسة ، فكان ذلك فى نظره أهون الشرين - وما كان مخيرا الا بين هذا وبين أن يستبسل له كل حصن ويضيع عليه الوقت فى حصارات لاعد لها . وعلى أى حال لقد أصبحت صور مجتمع بقية فرسان الصليبيين ، وزادهم قوة من انضم اليهم من وراء البحر . ولما شعروا بقوة عددهم وأن صلاح الدين لا يستطيع حصار مدينتهم جعلوا يخرجون بين حين وحين الى ماجاورهم من البلاد وكان صلاح الدين يدبر لهم الكمائن والبعوث تمنعهم من أن يفسدوا شيئا من بلاده ، وأخيرا استقر رأيهم على أن يذهبوا الى عكا لاسترجاعها فيكون بذلك لهم مئنتان عظيمتان على الساحل الاوسط

كان صلاح الدين عند حصن الشقيف فى الجبل ينتظر أن يأخذه فبلغه خبر سير الفرنج من صور نحو عكا . فظن ذلك خديعة منهم يريدون صرفه عن الحصن الذى هو دونه ، فتريث

حتى عرف أنهم جادون فى السير نحو عكا . فأسرع بمكاتبة  
الامراء ليأتوا اليه ، فاجتمع اليه جيش عظيم وجمع مجلسا  
حربيا ليختار طريق السير ، أيساير الفرنج على الساحل  
ويقاتلهم قبل بلوغ عكا أم يلقاهم هناك على المدينة بعد أن  
يسلك طريقا فى الداخل مارا بطبرية ، فاختر أمراؤه الخطة  
الاخيرة فهى أهون ، وكان هو غير راض عنها لأن الفرنج متى  
تركوا آمنين حتى يصلوا الى عكا أمكنهم اختيار المكان اللائق  
والتحصن حوله فيصعب بعد ذلك حربهم . ولكنه على كل  
حال اتبع ما أقره المجلس على حسب عادته - فقد كان رأى  
أمرائه اكبر من أن يهمله ، وكانت نتيجة أرغامهم على سلوك  
خطة معينة أخطر من أن يجربها ذلك السلطان العاقل ، فالحق  
أن سلطته كانت قائمة على قوة شخصه ونفوذه فى أمرائه  
اكثرا مما كانت قائمة على سلطان دولة مركزية قوية

وكان أول هم صلاح الدين عند بلوغه عكا أن يرسل اليها  
الامداد بعثا وراء بعث قبل أن يستفحل أمر حصار الفرنج لها  
واصبحت المدينة بعد زمن قصير محصورة بالفرنج تحت قيادة  
ملكهم ( كى ) والامير الكبير المراكيش ( كتراد ) ونزل حول  
الفرنج من الخارج جيش صلاح الدين وكان البحر مفتوحا يمد  
الفرنج من جهة بما يأتى مع أساطيلهم ، ويمد المدينة خفية  
لأن أسطول الفرنج فى البحر كان عند ذلك أقوى من أسطول  
المسلمين

وهكذا اجتمعت كل قوة الفرنج وكل قوة الدولة الاسلامية

عند عكا في أغسطس سنة ١١٨٩م شعبان ٥٨٥هـ فكان ماحولها ميدانا واسعا في البر والبحر ظهرت فيه من الجانبين آيات باهرة من الشجاعة والتضحية ، وأتى الافراد في كلا الجيشين أجل أعمال البطولة الحارقة للعادة . حقا لقد كان سباقا عظيما بين الشرق والغرب وقد ظهر فيه كلاهما بمظهره الاسمى كل بحسب طبعه ، وكان كلا الجانبين المتسابقين من جانبه جليلا واستمر النضال هناك عامين حدث في خلالهما معارك كثيرة بعضها كبير وبعضها صغير الى ان جاء فيليب ثم ريكارد في ربيع سنة ١١٩١م - ٥٨٧هـ . فأصبحت قوة الفرنج أكبر من أن يغلبها صلاح الدين فأثر ترك المدينة اليهم فسلمت بعد قليل في يولييه سنة ١١٩١م - ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ . وقد تقلب ذلك النضال بين المتحاربين وحدثت فيه فترات ، ولهذا يحسن تقسيمه الى أدوار ثلاثة : الاول من أول الحصار الى هجوم شتاء سنة ١١٨٩م - ٥٨٥هـ . والثاني من ربيع سنة ١١٩٠م - ٥٨٦هـ الى أول شتاء سنة ١١٩٠م . والثالث من ربيع سنة ١١٩١م - ٥٨٧هـ الى سقوط المدينة

### الدور الاول للحصار

حدث ما توقعه صلاح الدين - فعند ما ذهب الى عكا كان الفرنج قد اختاروا مكانهم وحصروا المدينة حصارا تاما وكان عددهم الفى فارس وثلاثين ألف راجل فكان هم صلاح الدين الاول أن يجعل في الحصار ثغرة يستطيع أن يصل بها الى المدينة بالجنود والاقوات حتى تقدر على المقاومة . وأنفتح الطريق

اخيرا الى المدينة بعد أن لقي صلاح الدين مشقة عظيمة من مقاومة الفرنج له . وكان كثير الاهتمام أثناء هذا حتى لقد بقي ثلاثة أيام بغير أكل الاشيئا يسيرا . ولكن الفرنج جعلوا يعاودون الكرات حتى يتموا الحصار مرة أخرى فكانت المعارك تحدث كل يوم حول الاسوار ، وهنا نلاحظ أمرا يمكن أن ندرك منه روح الحرب بين الطائفتين فقد جعل الحرب بين جنود المسلمين والفرنج شبه تعارف ومودة - وما أغرب ذلك - فكانوا بين الهجمات العنيفة يضعون السلاح ويتحدث الجماعة من المسيحيين الى الاخرى من المسلمين . وقد يغنى البعض ويرقص البعض . بل لقد كانوا يمزحون كما فعلوا مرة اذ أتو بصبيين : أحدهما مسلم ، والآخر مسيحي . ووقف الجانبان ينظران الى نضالهما حتى تغلب المسلم وقبض على أسيره المسيحي فافتداه بعض الفرنج المازحين بدينارين . وهكذا كان الناس من الطائفتين يقطعون بعض وقتهم في فترات الحرب - أحقا كان في هذه الحرب مرارة الجهاد وتجهم الحقد المتأصل في النفوس وعبوس العداء الذي كانت تمتاز به الحرب الصليبية الاولى ؟

لسنا مبالغين اذا قلنا أن عصر الحرب الصليبية الحقيقية كان قد انقضى منذ أوائل القرن الثاني عشر ولم يبق الا نضال دنيوى يدافع فيه المسلمون عن بلادهم ويحاول الفرنج أن يبقوها في يدهم اباء وأنفه أن يكونوا مخذولين وحذرا من معرة الهزيمة . وقد بلغ النضال أشده في هذا الدور من الحصار بعد نحو شهر ونصف من البدء فيه فدارت رخي أشد

معركة شهدتها أسوار عكا . وتقلب فيها الحظ بين الجانبين ولكن ثبات السلطان واخلاص أهل بيته وشجاعتهم وانقياد أمراءه لأوامره - كل ذلك جعل النصر للمسلمين بعد أن قتل من الجانبين عدد عظيم - ولكن قتلى الفرنج كانوا آلافا قيل سبعة

وبعد هذه الموقعة جمع السلطان مجلسا حربيا كعادته وكان يرى أن هذه الصدمة الأولى لا بد تؤثر في نفوس أعدائه فإذا تابع الهجوم كان رفع الحصار عن عكا محققا ، ولكن أمراءه رأوا تفضيل الراحة بعد وقوفهم عند عكا نحو خمسين يوما فنزل على رأيهم وكان هذا من غلطاته لأن الراحة أفادت الصليبيين أضعاف ما أفادت المسلمين . ولم يستأنف بعد تلك الراحة قتال جدى فى هذا العام لدخول الشتاء فاكفى صلاح الدين بادخال المؤن والرجال الى عكا ، وسرح جنوده لمدة الشتاء الذى تكثر فيه الامطار وتتعذر الحركات، وتراجع بباقي الجيش الى الحروبة تخلصا من عفونة الميدان الذى حول عكا لما كان به من جثث القتلى . ولم يكن خالى البال فى أثناء راحته لأنه كان يتوقع مجىء الامداد الى عدوه من أوروبا وكان كل يوم يتطاول به الحرب يزيد من توقع العجز عن رفع الحصار

وكان أكثر ما يرد اليه من أخبار الفرنج يدل على مسير ملك الألمان ( فردريك برباروسا ) فى جيش عظيم لنصرة الصليبيين



## الدور الثاني للحصار

بعد انقضاء فصل الشتاء ارسل صلاح الدين الى اطراف دولته  
الواسعة يدعو أمراءه لاستئناف القتال في الربيع من سنة  
١١٩٠م - ٥٨٦هـ فأنت اليه الكتائب يلي بعضها بعضا وجاءته  
مساعداً من الخليفة ببغداد . وقد استعد هذه المرة بالنفطين  
والزرايين الذين يرمون النيران والنفط على آلات الحصار. وقد  
أبلى في ذلك الشأن بلاء حسناً شاب من صناعات دمشق فانه  
أدخل من التحسين على صناعة النار ما جعلها تحرق آلات  
الحصار المنيعة التي كان الفرنج يطلونها بطلاء يمنع تعلق النار  
بها . وكان أشد الآلات على المدينة الدبابات وهي أبراج عالية  
ذات طبقات يركبها الجنود وتسير على عجل وفي مقدمتها حديد  
قوى فتصطدم بالاسوار فتصدعها ثم يعمل الجنود المجتمعون  
بها في الاسوار فيهدمونها

وقد تمكن ذلك الشاب المجتهد من احراقها باختراع سائل  
يرميه اولاً في قدور على هذه الدبابات المدرعة ثم يقذف بعد  
ذلك النار فيلتهب ذلك السائل ولا يقاوم ناره شيء

وقد تأخر وصول الاسطول المصري الى ما بعد ان استؤنف  
القتال ولهذا وجد صعوبة في الوصول الى الميناء ولم يصل اليها  
الا بعد أن قام صلاح الدين بهجوم عام من الخارج في البر  
ليشغل جنود الفرنج فيخفف بذلك الضغط عن البحر، فدارت  
معركة برية بحرية في وقت واحد وانتهت بانتصار عظيم  
ودخل الاسطول المصري عكا محملاً بالمؤن والمجاريين . وكان

صلاح الدين يجد فى الحرب خاشيا من وصول ملك الالمان  
بالمساعدة المنتظرة ، ولكن لحسن حظه كانت حملة ملك الالمان  
غير موفقة

فقد سار فردريك بارباروسا عن طريق البر من المانيا  
مخترقا بلاد المجر الى البلقان والقسطنطينية . وكانت تلك  
الخطّة فى الواقع خطة غير ممكنة لأن سير جيش عظيم فى البر  
لا بد يؤدى الى احتكاك كثير مع الاهالى ولا سيما فى الدول التى  
يوجد فرق بين مذهبها الدينى وبين مذهب الغربين وهذه  
عامّة أمم البلقان

فما زال الجيش يجد صعوبة بعد صعوبة حتى وصل أخيرا  
الى القسطنطينية وكان ملك القسطنطينية هذه المرة غير محتاج  
الى الصليبيين بل لقد كان يخشى زيادة اعدادهم عنده ويكره أن  
يجوسوا خلال بلاده - ولم يكن سلوك الجيش الالمانى سلوكا  
يطمئنه على سلامة بلاده فقد أوقعوا شيئا من النهب فيها  
وطلبوا منه كثيرا من الاموال كأنهم فى بلاد معادية . وكان عند  
( فردريك ) نفسه سوء ظن بالامبراطور الشرقى وهذا ما جعله  
يطلب منه الرهائن على حسن نيته ، ولعل هذا يفسر لنا الخطاب  
الذى أنفذه امبراطور القسطنطينية ( ايساكوس ) الى صلاح  
الدين يذكر له كرهه للالمان وولاءه له . نعم لقد تغيرت الاحوال  
منذ تلك الايام التى كانت القسطنطينية تطلب مساعدة غرب  
أوروبا على المسلمين أيام أثار ( الكسيوس ) نيران الحرب  
الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر

وبعد صعب جمة عبر ( فردريك ) المضائق الى آسيا الصغرى وهناك لقي أشد الصعاب من التعب والجوع من جهة ومن المرض من جهة أخرى ومقاتلة فرسان مملكة الروم الاسلامية وملكها ( قلع ارسلان ) من جهة ثالثة . وقد جاءت الضربة القاضية لذلك الجيش أخيرا اذ مات عميده الامبراطور ( فردريك ) في نهر في شرقى آسيا الصغرى . قال جماعة مات غرقا ويقول متحمسو المسلمين أنه غرق في ماء لا يتجاوز علوه نصف علو الرجل لظهار يد الله في الامر . ويقول جماعة آخرون بل مات اذ نزل الى ماء النهر وكان شديد البرد ليستحم فيه عقيب تعب عظيم فمرض من ذلك وقضى المرض عليه



سمع صلاح الدين أولا بالاخبار المروعة وهى اقتراب جيوش فردريك من بلاده عند وصولهم الى شرق آسيا الصغرى وبلاد الأرمن فاتخذ الحيلة وهو القائد الحذر ، فأرسل جماعة كبيرة من أمراء جيشه ليرابطوا على منافذ الشام من الشمال ، وحاول أن يهدىء الناس مما نالهم من الفزع لهذه الاخبار ولكنه حاول عبثا فبدؤوا يخزنون الاقوات ويستعدون للشدائد ولكن مالبث أن اتته اخبار الضعف الذى انتاب ذلك الجيش العظيم فتنفس الصعداء وفرح الناس بذلك وما زالت الاخبار ترده كل يوم بزيادة الضعف الى أن عرف أخيرا أن فلول ذلك الجيش قد لجأت الى انطاكية وكانت البقية من الجيش العظيم ليست مما يحسب له حساب كبير

وقد شعر الفرنج الذين حول عكا بنقص جنود صلاح الدين عندما أرسل بعض أمرائه الى الشمال لحمايته من جيش ( فردريك ) فأحبوا أن ينتهزوا الفرصة وهاجموا الجهة التي نقصت جنودها نقصا كبيرا وهى ميمنة جيش صلاح الدين وكان عليها أخوه الملك العادل فدارت هناك معركة عظيمة تعرف باسمه وهى المعركة العادلية

واستمر النضال اكثر النهار واشترك فيه المحصورون فى المدينة فانهم خرجوا على الفرنج من ورائهم أثناء المعركة فتم النصر بذلك لصلاح الدين وقتل من الفرنج عدد كبير يقدره المسلمون بنحو ثمانية آلاف فكان هذا النصر من جهة وأخبار ضعف الجيش الالماني من جهة أخرى عاملين على فرح عام فى جيش المسلمين زادت له الروح المعنوية فى عكا مع أن الحصار كان قد أثر فى رخائها تأثيرا كبيرا . وهذه الموقعة العادلية اكبر مواقع الدور الثانى للحصار ولكن اذا كان الفرنج قد لحقتهم هذه الهزيمة فانهم احتفظوا بكثير من ثباتهم بقية الصيف ولا سيما وقد جاءتهم أولى مساعدات الصليبيين من غرب أوروبا بقيادة من يسميه العرب ( الكندهرى ) أو الكونت هنرى ) وهو ( هنرى دى شميانيا ) قريب ملكى فرنسا وانجلترا فى آن واحد فما كاد صلاح الدين يفيق من الحلم المزعج بالخطر الذى كان يتهده من قبل الالمان من الشمال حتى أتته طلائع الامداد العظيم الذى أرسلته أوروبا مجتمعة

وبدأ الحصار يشدد مرة أخرى بعد وصول هذه الامدادات

وجعل الفرنج يقذفون أسوار المدينة بالمجانيق بقوة لم يسبق عهد بها غير أن شجاعة المدينة لم تقل أمام هذه الهجمات العنيفة فقد كان ( بهاء الدين قراقوش ) و ( حسام الدين أبو الهيجاء ) بين العسكر يوقدون فيهم الشجاعة بأعمالهما وقودتهما ، فكان المدافعون يخرجون بين حين وآخر فيوقعون بالمحاصرين وقعت ذات شأن بين أسر وقتل ونهب . وكان الزرقاؤون والنقاطون دائبين على الدفاع بالنيران بهمة تعادل هممة المحاصرين في قذف المدينة من الخارج

وقد ظهرت شجاعة الجانبين جليا في آخر ذلك الدور ، وإذا كان لا بد من التمييز بين الجانبين فلا بد من تمييز المحصورين لما بذلوه في شدتهم من التفانى في الدفاع والصبر وكان من الافراد من يبذل جهدا خارقا للعادة في أداء واجبه فكان بعضهم يعوم من المدينة مخترقا صفوف السفن الفرنجية الى أن ينفذ الى صلاح الدين فيحمل اليه الاخبار ويعود بعد ذلك يحمل ما يراد منه أن يحمله من رسائل أو من أموال يشدها حول جسمه ليمد بها المحاربين . وإذا كان بين عامة الافراد أبطال لا يسميهم التاريخ فقد سمي التاريخ بطلا من عامة أهل عكا أبلى بلاء عظيما في أثناء ذلك الدور حتى قضى نحبه وهو يؤدي واجبه وذلك هو عيسى العوام . واشتد الحصار بعد ذلك اشتدادا أعظم حتى صار التراسل غير ممكن الا بالحمام الزاجل بين المدينة وجيش صلاح الدين ولكن مع هذا أمكن السلطان أن ينفذ الى المدينة بعض السفن بين حين وآخر محملة بالمؤن

التي أصبحت المدينة في أشد الحاجة اليها - ولكن كان دخولها المدينة بعد مشقة عظيمة اذ كانت قوة الفرنج في البحر قد زادت بما انضم اليها من امداد أوروبا . ولعل الذي كان يمكن سفن المسلمين من دخول الميناء أنه كان هناك عند مدخلها برج عظيم اسمه برج الذباب مبنى على الصخر يخرس الميناء، فاذا عبرته المراكب أمنت غائلة العدو . فلما رأى الفرنج قيمته الحربية جعلوه همهم ودارت حوله معركة عظيمة بذل فيها الجانبان مجهودا كبيرا ولكن الفرنج عجزوا عن أخذه . وفي أثناء حصار برج الذباب وصلت بقية جيش الالمان بقيادة (المركيش) صاحب صور و (دوق سوابيا ) ابن ملك الالمان فزاد القتال شدة ، واستمر هذا النضال بعد ذلك شهرين طويلين ظهرت فيهما نفس صلاح الدين وثباته رغم مرضه بحمى صفراوية . وقد تفشى المرض في الجيش للوخم الذي أصاب الهواء بقرب عكا من كثرة القتلى ، ولكن عزيمة صلاح الدين كانت لا تقل وقد نصحه ناصح مرة أن يترك الميدان لما فيه من الخطر ثم يعود اليه بعد ذلك فتذكر السلطان الحازم خطأه السابق اذ انصرف عن العدو في الدور الاول وقاتل لناصره : « اذا كان لا بد من الموت فليكن فهو على وعلى أعدائي »

ثم تمثل وقال : « اقتلاني ومالكا واقتلا مالكا معي »

وجعل صلاح الدين يحتال على عدوه بتدبير الكمائن والهبوط عليه بين حين وآخر ولكن لم يجده ذلك وهجم الشتاء قبل أن يستطيع رفع الحصار عن المدينة . وهكذا اضطر أن

ينصرف بقلب ثقیل عن المدينة وجعل یصرف جنوده للراحة مدة الشتاء وهو يشعر بأن المدينة قد حان أجل تسليمها . وقبل الرحیل انتهز فرصة هياج البحر وذهب أكثر سفن الفرنج من تجاه ميناء عكا لاجثة الى الشاطئ فأدخل الى المدينة جماعات من الجنود والامراء بدل من فیها ممن طال علیهم الدفاع واشتد التعب وأدخل معهم ما تیسر من المؤن والذخائر ولكن لم یکن الاقبال على دخول البلد كثيرا ولهذا لم یدخل من الامراء والجنود عدد یعادل من خرج منها

ولسوء حظ المدينة لم تستطع السفن الآتية من مصر بالمؤن أن تدخل الیها وذلك لشدة هياج البحر فغرقت وتكسرت وكان لذلك أثر كبير فی نفوس من فی المدينة وسيكون اثر هذا أعظم بعد انقضاء الشتاء وعودة القتال واشتداد الحصار فان المدينة ستدخل على الدور الثالث من الحصار وليس بها من المدافعين ولا من المؤن ما یقیمها أمام هجمات عدوها العذیفة

### **الدور الثالث للحصار**

مضى على حصار عكا صیفان وشتاءان وجاء الربیع من سنة ١١٩١م و ( سنة ٥٨٧ هـ ) . فأخذت جیوش صلاح الدین تجتمع الیه من كل أنحاء الدولة كما بدأ الفرنج یجددون اغاراتهم على المدينة ویشددون حصارها

ولكن المدينة فی هذا الربیع لم تكن على مناعتها فی الدورین السابقین اذ كانت الاقوات فیها قليلة وكان المدافعون عنها أقل عددا وحماسة ممن كان فیها من قبل . وقد زاد الامر شدة

على المدينة مجيء أسطول فرنسي وآخر انجليزى يحملان جنود  
فيليب أوجست ( الفرنسيين ) وريكارد ( الاتكتار )

وقد جاء ريكارد متأخراً قليلاً عن جيش الفرنسيين بعد أن  
أخذ فى سبيله جزيرة قبرص وكان معه خمس وعشرون قطعة  
كبارا من السفن

وقد اجتهد الفرنج منذ أول هذا الدور فى طم الخندق الذى  
حول عكا ولكن أهل المدينة صبروا على المقاومة صبرا حميدا  
فكانت جماعاتهم يخرجون ما يلقى فى الخندق ويلقونه فى  
البحر تحت حراسة اخوانهم ويجدون فى ذلك مع المشقة العظيمة.  
وكان صلاح الدين فى الوقت عينه يجد مشقة كبرى فى الهجوم  
على الفرنج لتحصنهم فى خنادقهم - ولهذا أمكن الفرنج أن  
يضيقوا الحصار على المدينة وصار من أشق الأمور إيصال شئ  
اليها من المؤونة

ولكن لا بد من ذكر أحد البعثات البحرية التى أرسلها صلاح  
الدين امدادا الى عكا وكان معها ستمائة وخمسون رجلا ومقدار  
عظيم من المؤن والأسلحة فان المهارة الحربية فى البحر التى  
امتاز بها الانجليز كانت أكبر مما عهده جنود المسلمين من  
الفرنج فأحاط الانجليز بالسفن الاسلامية حتى كان لا مناص  
من استيلائهم عليها ولكن من فيها آثروا الموت فأهروا على  
جوانب السفن بالمعاول حتى ثقبوها وغرقت وغرق كل ما بها  
ومن بها وكان قائد هذه البعثة يعقوب الحلبي تذكره فخرا  
واعجابا



وقد بدأ ملك الانجليز بارسال الرسل الى السلطان منذ أول مجيئه يفاوضه في قواعد الصلح ولكن شروطه كانت أشد مما يقبله السلطان . فان الضعف اذا كان قد دب في عكا فان دولة صلاح الدين كانت راسية الاساس متينة لا يستطيع مهاجم أن ينال منها شيئا ولهذا لم تنجح المفاوضات الاولى بل أصر السلطان على أن يظل على الحرب حتى يخضع له عدوه في النهاية

ولم يخل هذا الدور الثالث من ظهور آيات جديدة تدل على ما كان عليه صلاح الدين من الخلق ولنذكر قصة الرضيع مثلاً لهذا وذلك أنه حدث في بعض اغارات المسلمين ان استولى مسلم على طفل رضيع ، فطار عقل الام وراء ابنها وخرجت الى معسكر المسلمين حتى وصل أمرها الى السلطان . فلما وقفت أمامه وعرف قصتها بكى رحمة لها وأمر برد ابنها اليها فالتمس حتى وجده بعد أن كان قد بيع في السوق فدفع السلطان ثمنه الى المشتري وسلمه الى أمه وحملها على فرس واعادها الى معسكر الفرنج

على أن الفرنج وان زاد عددهم لم يكونوا على وفاق فقد كان فيهم رؤساء عدة كل منهم يحسد الآخر ويغار منه فكان هناك الملك القديم ( جى دى لوسنيان ) أو ( كى ) كما يسميه العرب وكان معهم المركيش صاحب صور وجاء بعد ذلك فيليب وريكارد

وكان أول من تار من هؤلاء الرؤساء المركيش فانه هرب

من صفوف اخوانه عائدا الى صور وهناك تنحى عن الميدان حتى  
قتل كما سنذكر بعد

وكان صلاح الدين فى هذه المدة كثير الالم لما يراه من الضيق  
الذى أحاط بالمدينة حتى كان لا يأكل الا قليلا لهمه وغمه .  
وبدأت ترد اليه رسائل من المدينة يشكو من فيها الضيق  
والشدة وذلك بعد نحو شهرين من بدء الحرب فى هذا الدور  
اذ كان الفرنج قد نجحوا فى أخذ الحنادق التى حول المدينة  
وعملوا تلا مستطيلا من التراب يحتمون وراءه ، وجعلوا  
يقربون من أسوار المدينة حتى أصبحوا بجوارها ولم يقدر  
السلطان على مساعدة المدينة مساعدة كبرى مع محاولته ذلك  
بكل ما استطاع ، فلم يجد من فى المدينة بدا من مفاوضة  
الفرنج فى التسليم بعد نحو ثلاثة أشهر من تجدد الحرب  
وكانت شروط الصلح أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من  
الآلات والعدد والمراكب وأن تدفع نظير الاسرى المسلمين  
مائتى ألف دينار وتطلق ألفا وخمسمائة فارس من مجاهيل  
الاسرى الفرنج ومائة فارس معينين وأن يرد صليب الصليبيات  
- وأن يخرج جميع من فى المدينة سالمين بما معهم من الاقمشة  
المختصة بهم وذرايرهم ونسائهم ولكن تلك الشروط لم تنفذ  
كلها كما سيأتى

وهكذا سلمت المدينة للفرنج فى ١٢ يولييه سنة ١١٩١ م  
(١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ) بين حزن الجنود الواقعة فى  
الخارج وألم السلطان الذى كان أشد الناس شعورا بتلك

الصدمة ، وتهليل الفرنج لما نالوا من نصر بعد عامين قضوهما  
فى حرب مهلكة عند أسوار تلك المدينة



كان ميعاد بذل المال لفداء الاسرى شهرين - فبعد ان سلمت  
المدينة كان هناك جانبان كل منهما يشك فى نية الآخر فالفرنج  
وقد أخذهم زهو النصر لا يريدون أن يسلموا شيئا من أسراهم  
حتى يتأكدوا من المال ، والمسلمون وقد وخرهم الانهزام يريدون  
ألا يزيد عدوهم قوة بالمال المشروط الا اذا تأكدوا من أنهم  
يطلقون الاسرى المسلمين . وهكذا بدا الصليبيون بالاحتياط  
فحبسوا المسلمين الذين فى عكا ممن يجب فداؤهم

وأما المسلمون فبدءوا فى تحصيل المال وعرضوا أخيرا أن  
يسلموا منه النصف بشرط أن يضمن الداوية ( فرسان المعبد  
أو التمبل ) اطلاق الاسرى عند تمام دفع المال لأنهم كانوا أهل  
دين ومحافظه على العهد يعرفهم المسلمون بذلك . فأبى الداوية  
أن يضمنوا ، وقال الفرنج أنهم يصرون على دفع المال كله  
ولهم بعد وصوله أن يطلقوا من شاءوا ويحفظوا من شاءوا .  
فشك صلاح الدين فى نيتهم وانهم يريدون وصول المال  
ليتقوا به ثم يطلقون الفقراء والصغار ويحتفظون بالامراء  
والاغنياء ليصيبوا من وراء ذلك غنما جديدا يتقوون به ولهذا  
أبى أن يسلم المال الذى جمعه

ثم استمر القتال بين الفريقين بعد أخذ الفرنج عكا وما كان  
اشد دهشة المسلمين عندما رأوا بعد القتال جثث اسرى عكا

وقد قتلهم الفرنج وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف رجل وذلك في  
أغسطس سنة ١١٩١ م ولم يبق من الأسرى الا الأمراء  
والأغنياء . وعلى ذلك لم يرسل السلطان المال ولا الأسرى الفرنج  
ولا الصليب

وانا لا نقدر أن نشدد النكير فى اللوم على الفرنج على  
ما أتوه ، فلا نستطيع أن ننسب ذلك الى التعصب والكره  
والحقده كما يذهب جماعة من المؤرخين بل نرى ذلك نتيجة  
لسوء فى التفاهم بين الجانبين فى وقت كانت العداوة ثائرة  
والنفوس متألمة بعد قتال عنيف استمر سنتين عند أسوار  
المدينة وكان ذلك النصر بعد الهزائم المتكررة دافعا بطبيعة  
الامر الى ارتكاب ذلك الشطط

على أننا لانتمالك الإعجاب بصلاح الدين واعتداله وحكمه  
لنفسه اذ أرجع أسرى الفرنج الى دمشق سالمين مع شدة غضبه  
وحنقه على من نقضوا العهد ولم يأخذهم بجريرة اخوانهم



## الفصل السابع

صلاح الدين

وريكارد ملك الانجليز



## الحرب بعد سقوط عكا

قد كان لاخذ عكا أثر أدبى كبير فوق ما كان له من أثر مادى فى تقوية الفرنج وتخذيل المسلمين فان الصليبيين ساروا بعد أخذها منتصرين وخشى المسلمون بأسهم فكانوا يفرون فى أكثر مواقع اللقاء ولولا ثبات صلاح الدين نفسه وأخيه العادل وبعض كبار الامراء لكان الخطب أعظم - وكان قائد الفرنج بعد اخذ عكا فى أكثر الوقت ريكارد وذلك لان فيليب ملك فرنسا عاد الى بلاده عقيب أخذ تلك المدينة ولعل من أسباب عودته ما كان بينه وبين ريكارد من الخلاف والمنافسة

سار ريكارد الى الجنوب على رأس الجيوش الصليبية قاصدا اخذ بلاد الساحل ، ثم اذا اطمأن له ذلك نفذ الى الداخل ليستولى على بيت المقدس

وسار صلاح الدين وأمرأؤه بازائهم ولكن المسلمين كانوا يسبقون الى الجنوب مسرعين على حين كان الفرنج يترثون فى سيرهم اما لانتظار المدد من وراء البحر واما للخوف من الكمائن . ولم يحدث قتال يستحق الذكر الا عند ارسوف فى اول سبتمبر سنة ١١٩١ م شعبان سنة ٥٨٧ هـ . وهناك انهزم المسلمون

هزيمة كبرى ولولا ثبات صلاح الدين فى القلب مع جماعة قليلة ، ولولا اثره الشخصى فى تحميس الجنود او اشعارهم الحجل من فرارهم لكانت موقعة أرسوف نكبة من أكبر نكبات هذه الحرب . ولم يستفد الفرنج من انتصارهم عند أرسوف اذ كانوا دائما يحسبون قرار المسلمين خديعة ويحسبونهم قد أكمناوا لهم الكمائن - وزاد فيهم هذا الاعتقاد عندما رأوا فى القلب جماعة ثابتة ، وهى الجماعة الملتفة حول السلطان

ولما رأى صلاح الدين ضعف الحالة المعنوية فى جيشه جمع أمراءه عقب الموقعة ليرأوا رأيا فى الحطة التى يجب اتباعها فقرروا ان يتركوا الساحل للفرنج ولا يحاولوا المدافعة عن مدينة من مدنه . ولكنهم قرروا تخريب المدن الجنوبية القريبة من حدود مصر حتى لا يتحصن الفرنج بها اذا أخذوها فيكونوا خطرا على المواصله بين مصر وبين ميدان الشام وتقرر البدء بتخريب عسقلان . وقد تألم صلاح الدين أكبر ألم لذلك اذ قال لاحد ثقاته : « والله لأن أفقد اولادى بأسرهم أحب الى من ان أهدم منها حجرا واحدا ولكن اذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان »

وقد بدأ هدم المدينة بعد قليل وسط آلام الناس جميعا وكان صلاح الدين يسرع بتدميرها قبل أن يعلم الفرنج بأمرها خوف أن يسرعوا اليها فيأخذوها قبل اتمام ذلك الغرض ويعيدوا حصونها فتكون لهم بها قوة ومنعة

وكانت تلك الحطة فى الحقيقة خير ما يمكن فى تلك الظروف



إذا نظرنا الى ما كانت عليه النفوس فى جيش صلاح الدين بعد صدمتى عكا وأرسوف . وقد اتبع صلاح الدين خطة التدمير والهدم نفسها فى اللد وقلعة الرملة وذهب فى أثناء ذلك الى القدس يزيد من تحصينها وتجديد أسوارها فكان غرضه ظاهرا من أعماله وهو أن يدع الساحل للفرنيج ويقوى الداخل علما أن أعداءه أقوياء قرب البحر وأن فرصته انما تكون اذا هم بعدوا عنه متوغلين فى الداخل

واستولى الفرنج فعلا بعد قليل على كل مدن الساحل وحاولوا أن يعيدوا حصون عسقلان وسواها مما خربه السلطان وبدأوا يفكرون فى غزو الداخل ولكن فى هذه الاثناء دب خلاف جديد بين المراكيش ( كرادى منفرات ) وبين الانكتار ( ريكارد ) وجعلت رسل كل منهما تفد الى صلاح الدين أو الى أخيه الوديع الملك العادل تطلب الصلح ، وقد أدرك ( ريكارد ) أن الاستمرار فى الحرب غير ممكن وأنه ان أحرز نصرا مرة أو مرتين فلن يقدر على طول النضال ولهذا أراد أن ينتهز فرصة ضعف الروح فى الجيش الاسلامى ليفوز بشروط رابحة - فكانت رسل المراكيش تأتى عارضة شروطا للصلح ورسائل الانكتار تأتى عارضة شروطا أخرى كما يفعل المتنافسان وكان الملك العادل هو السفير فى المفاوضات فى أكثر الاحيان

وكانت شروط المراكيش ان تكون له صيدا وبيروت على ان يكون حليفا للمسلمين ضد الفرنج

ولكن صلاح الدين كان غير واثق من صدق نيته فاشترط

عليه أن يبدأ بحرب الفرنج ومهاجمة عكا قبل أن يصلح له  
وأما شروط الانجليز فقد كانت الاستيلاء على القدس وإرجاع  
الصليب وأخذ البلاد التي بين نهر الأردن والساحل وأن يكون  
تحالف بين الدولة الإسلامية والصليبيين ويتزوج الملك العادل  
بأخت الانكتار ويكونا معا حاكمين على الدولة الجديدة بمقتضى  
المعاهدة ، ولكن تلك الشروط لم ترق أحدا من الجانبين

والظاهر أن الجنود الإسلامية بدأت تسترجع قواها بعد  
شهرين من سقوط عكا وبدأت تقف ثابتة وتحرز بعض النصر  
في مواقف الحرب وبدأ الانكتار يرى الحقيقة التي كان انتصار  
عكا أخفاها عن عينه وهي أنه ليس من الطبيعي أن ينتصر في  
بلاد بينها وبين مقر دولته سفر طويل في البحر ، ويكون النصر  
على قوم في وسط بلادهم تتجدد قوتهم بعد حين إذا ضعفت  
وتأتى إلى ميدان النضال فيها كتائب تحل محل من قتل ومن  
أسر . ولهذا بدأت المفاوضة من جديد وكانت الشروط هذه المرة  
ألين وأهون . ومما يسترعى النظر أن المفاوضة بين الجانبين  
كانت تتخللها فكاهات ومداعبات وهدايا ومجاملة فيحمل  
الملك العادل من طعام المسلمين وتحفهم إلى الانكتار ويحمل  
الانكتار من طعام الانجليز وتحفهم . حتى إذا ما اجتمع الاثنان  
تجاذبا أطراف الحديث من سمر ودعابة وفكاهة ينسى الانسان  
معهما أن هذه مفاوضة في حرب مرة ثار لهابها طول قرن لم  
يخب ولم ينطفئ . - حتى لقد نشأت شبهة منجبة بين العنادل  
وريكارد واستمرت إلى أن انتهى الأمر بالصلح أخيرا

وكان صلاح الدين فى أثناء كل هذا لا يرغب رغبة حقيقية فى الصلح على تلك الشروط فكان لا يرضى بدون خروج الفرنج من جميع البلاد ولكنه كان يرضى بدخول أخيه فى المفاوضة لكى يضرب جانب المركيش بجانب الانتكاز ويحدث له من وراء ذلك الربح والفوز ولعله كان أميل الى المعاهدة مع المركيش لانه كان يرى أن شروطه أهون شرا وأنه اذا بقى فى بلاد الساحل فلن يكون شديد الخطر بل يسهل طرده منها بعد حين . ولكن الامراء رأوا أن الصلح مع الملك ( ريكارد ) أتم وأضمن للمسلم لقوته وشجاعته

وقد دخل شتاء سنة ١١٩١ بغير أن يتم صلح مع أحد الجانبين . فرجع صلاح الدين الى الداخل وعاد ريكارد الى عكا على أن المفاوضات لم تنقطع بين المسلمين وطائفتى المركيش من جهة وريكارد من جهة أخرى . وقد أراد صلاح الدين أخيرا أن يبرم الامر على ما يراه هو . وأن يصالح المركيش اذ رأى أن الصلح معه يضعف الفرنج فاذا تم له النصر أخيرا على ريكارد سهل عليه أمر المركيش . ولكن ما لبث أن سمع نبأ قتل المركيش فى صور قتله اثنان من أصحابه على قول جماعة ويقول آخرون : بل قتله اثنان من الفدائيين من طائفة الباطنية الاسماعيلية . ويعتقد الجميع أن قتله كان بدس من أعدائه ولكن هناك خلافا فتقول طائفة أنه قتل بإيعاز صلاح الدين ويقول آخرون : بل قتل بإيعاز ريكارد . ولكن مهما يكن من الامر فان صلاح الدين لم يدس على المركيش من قتله وذلك لعدة

أسباب يكفى أحدها أن يكون برهانا قاطعا . فان صلاح الدين لم يكن رجل الدسيسة والغدر - حقا كان يجاهد ويحارب ولكنه كان يحارب فى الميدان المفتوح واثقا من النصر اذ كان يرى الحق معه ولم تكن فى حياته شبهة من غدر أو خيانة . وكذلك لم يكن صلاح الدين على وفاق مع الاسماعيلية بل أنه كان موتورا منهم لسابق اعتدائهم عليه . ولئن كان لصلاح الدين غرض فى الغدر فكان الاولى به أن يغدر بعدوه الاكبر ريكارد وكانت فرص الغدر به كثيرة لو شاء وما كان اقرب اليه اذا كان رجل غدر أن يدس على ( ريكارد ) من يقتله أثناء اجتماعه بأخيه للمفاوضة أو يدس له السم فى الطعام الذى كان يأكله من يد المسلمين آمنا . وهل يتهم صلاح الدين - وهو الرجل الذى كان يرسل لعدوه الدواء وهو مريض - بأنه يدس على عدو آخر من يقتله ؟ !

وقد رأينا أن صلاح الدين كان أميل الى مصالحة المراكيش وانه كان يرى المصلحة فى الاتفاق معه ليكون مساعدا له على الصليبيين فكان من مصلحته أن يبقى حيا وليس أن يدس عليه من يقتله فى الوقت الذى كان قد أستقر رأيه فيه على مصالحته وتفضيل التعاهد معه على مصالحة ملك الانجليز

فيلوح لنا أن الحقيقة هى أن ( ريكارد ) صاحب الدسيسة كما أقر القاتلان نفساهما . وأن قتله كان على يد اثنين اما من المسيحيين المتحمسين واما انه استأجر اثنين من الاسماعيلية وقد تنكروا فى زى المسيحيين لهذا الغرض

ومن السهل أن نتصور الباعث على قتله فإن المركيش كان  
في نظر الصليبيين خائناً خارجاً على الدين موالياً لأعداء المسيح  
ثأراً على أوليائه



## الميدان الاخير

دخل ربيع سنة ١١٩٢ م - ٥٨٨ هـ فاجتمع الجنود المسلمون الى صلاح الدين ولم يجتمع الى ريكارد الا فلول جيشه القديم وقد خبت ثورة النصر الذي أحرزوه في العام المنصرم الا أنه كان لا يزال على عزمه في خطته الاولى وهي أن يدخل الى بيت المقدس بعد الاستيلاء على الساحل الجنوبي فلما تم له أخذ الساحل في العام الماضي جعل غرضه من حرب هذا العام الاستيلاء على بيت المقدس فما زال يسير من منزلة الى منزلة وجنود صلاح الدين بازائه وكان السلطان قد حصن بيت المقدس وقسم أسوارها على أمرائه مصمما أنه لن يترك عدوه يستولى على تلك العاصمة كما استولى على عكا ولهذا أخذ أمر الدفاع عنها في يده . ووصل الفرنج أخيرا عند موضع اسمه بيت نوبه على مرحلة من بيت المقدس وهناك بدأوا يترددون ثم وقفوا . ولم يحدث في وقوفهم هناك أكثر من نهب قافلة عظيمة كانت آتية من مصر بالذخيرة ويقال ان عدد جمالها كان سبعة آلاف جمل فاستولى الفرنج على ثلث منها وتشتت منها ثلث في البرية ووصل الثلث الاخير الى الكرك محتميا بها ولكن هذه الحسارة لم توقع الرعب في قلب صلاح الدين

بل زادته تصميمًا على الدفاع واعدادًا لعدته فبالغ في تحصين بيت المقدس وأفسد الماء الذي في ظاهر المدينة وكان في هذه الأثناء شديد الوجد كثير الدعاء لله بالنجدة يتخلل دعاءه البكاء وما كان أشد دهشة المسلمين بعد هذا كله إذ سمعوا بعودة الفرنج إلى الساحل . ولعل سبب رجوعهم ما سمعوه من استعداد صلاح الدين لهم وكان عدد جنودهم غير كاف لاتمام حصار المدينة من كل جانب لاسيما والمدينة يحيط بها واد منخفض من أكثر جهاتها ، وهذا يدعو إلى تشتيت القوة المحاصرة

وكان الفرنج يخشون التشتت لعلمهم بأن المسلمين إذا هبطوا على جماعة وحدها قضوا عليها ثم عادوا إلى الجهة الأخرى وهكذا

وقد فرح المسلمون أشد فرح بعودة الفرنج عنهم وتشددت عزائمهم وبدأت أحاديث الصلح بعد ذلك تتردد وكانت شروط ملك الإنجليز هذه المرة صالحة لأن تكون أساس المفاوضات . وهي أن يترك ريكارد البلاد الساحلية لابن أخته الكندهري (الكونت هنري دي شمبانيا) على أن يكون تحت حكم صلاح الدين وأن يأخذ الفرنج كنيسة في بيت المقدس

فرضى صلاح الدين بإعطاء كنيسة القيامة بالقدس وإبقاء مدن الساحل في يد الفرنج إلا عسقلان وما وراءها فتكون خرابا ليست لأحد من الجانبين وأن تكون كل القلاع الجبلية للمسلمين وجعلت المفاوضات تسير بين الطرفين سيرا مترددا طول مدة

الصيف ويختلف الطرفان على تفاصيل قليلة الخطر

وتخللها انقطاع وحرب وكان ميدان تلك الحرب عند يافا .  
فأخذها صلاح الدين بعد حصار قصير . وكان ريكارد في هذه  
الثناء ذاهبا الى الشمال نحو بيروت فلما سمع بحصارها عاد  
مسرعا اليها في البحر وهناك ظهرت شجاعته العظيمة التي كان  
لها أكبر اثر في نفوس المسلمين . فانه لم يكن معه إلا عدد  
قليل ولكنه مع ذلك استطاع تنجية القلعة وهرب من أسسه  
الجيش الكبير الذي كان في يافا . وقد تحدى ملك الانجليز في  
اليوم التالي كل جيش المسلمين آخذا رمحه حاملا من طرف  
اليمين الى طرف اليسرة فلم يتعرض أحد له حتى غضب صلاح  
الدين وأعرض عن القتال وانصرف عن يافا الى الرملة مع أن  
ريكارد لم يكن في أكثر من ثلاثمائة مقاتل

### تقدير بطل لبطل

وقد مرض ريكارد بعد ذلك مرضا شديدا واشتبهى الكمثرى  
والخوخ والثلج فكان صلاح الدين ينفذ اليه بما يطلب من ذلك .  
ولعل ذلك من أكبر ما يقوم دليلا على تقدير البطل للبطل ولو  
كان عدوه

وعزم الجنود الفرنسيون عند ذلك على العودة الى بلادهم  
ليلحقوا بملكهم الذي سبق رحيله فاشتدت رغبة ريكارد في  
الصلح وكانت عقدة الاتفاق عسقلان فان ملك الانجليز كان  
مصرأ على أخذها محافظة على كرامته في الصلح وكان صلاح  
الدين ياباها عليه اباء شديدا خوفا على مصر منها ومحافظة على



كرامته في الصلح أيضا إذ كان أخذها عنوانا للنصر في تلك الحرب التي لا يستطيع جانب فيها أن يدعى النصر غير مدافع وأخيرا تم صلح الرملة في ٣ سبتمبر سنة ١١٩٢ ( ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ ) وحلف عليه من الفرنج جماعة الامراء والملك الذي سيتخلف بالشام وهو ( الكندهري ) ولم يحلف الملك ( ريكارد ) قائلا أن الملوك لا يحلفون ولكن كلمتهم تكفي . وحلف من المسلمين الملك العادل أخو صلاح الدين والملك الأفضل والملك الظاهر أبناء وجماعة من أمراء الكبار وكانت شروط الصلح أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا إلى يافا وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من أولها إلى الجنوب لصلاح الدين

ودخل في ذلك الصلح أميرا طرابلس وأنطاكية على أن يحلفا للمسلمين فإن لم يفعلا لم يدخل في الصلح

وهكذا تم الصلح ووفدت وفود الحجاج المتحمسين إلى القدس فأكرمهم صلاح الدين أكراما عظيما وعاد ريكارد إلى بلاده وانصرفت الجنود الإسلامية عائدة إلى أوطانها المختلفة بعد تلك الحرب الضروس التي لم يخبلها مدة قرن ، فمات فيها من مات من الفرنج في سبيل غرض دفعتهم إلى قصده حماسة غير موفقة وساقهم إلى تلك الحماسة جماعة كان أكثرهم «يسرحسوا في ارتقاء» (١) ، ومات من مات من المسلمين في دفاعهم المجيد

---

(١) مثل يضرب لمن يظهر امرا ويخفى فيه

عن أوطانهم يقودهم شيوخ من كرامهم رأوا ذلك الجهاد خير  
ما يقضى فيه عمر الأحياء • وما الحياة ؟ أليست تلك الانفاس  
التي تتردد فى تلك الفترة المحتومة ما بين واجب الميلاد وواجب  
الموت ؟ ألا انها لفترة مملة منسمة اذا لم يكن بها ما يهز النفوس  
— ولئن كان هذا كذلك فلقد اختار مسلمو ذلك العهد ذلك  
الجهاد سلوة جديرة بكرام الرجال

وأما عمل صلاح الدين فى ذلك فانه قد جمع الدولة الإسلامية  
بين يديه وكانت عندما دخل الميدان لاتعدو عاصمتين من عواصم  
الشام والجزيرة وما بينهما من الارض وكان ما عدا ذلك فى يد  
الفرنج أو الفواطم

فلما مات كانت دولة واحدة من الدجلة الى النوبة الى برقة  
وما زال بالفرنج حتى حصرهم على الساحل فى الرقعة الضيقة  
بين عكا ويافا • واذا قلنا أن ذلك عمل صلاح الدين فما ذلك  
الا لانه لولاه لما تم ولظلت دولة الفرنج قوية بل لزادت قوة



خريطة دولة صلاح الدين



## الفصل الثامن

نهایة البطل



## وفاة صلاح الدين

أقام صلاح الدين بالقدس حينما بعد الصلح لكى يصلح من أمرها على حسب سنته وأقام بها المدارس والمستشفيات ثم خلف بها صديقه القديم عز الدين جورديك وسار يتفقد أحوال البلاد الشمالية ويقابل الأمراء لا يفرق بين صاحب انطاكية المسيحي وأصحاب نابلس وطبرية وصفد المسلمين . ثم دخل دمشق وكان دخوله اليها دخول المنصور الموفق . واستقبلته تلك المدينة المحبوبة استقبالا عظيما جمعت فيه تقدير عظمته وحب كرمه وخلقه العظيم وجاءت اليه وفود الناس من أهل دنيا وأهل دين واجتمع له الشعراء والأدباء يقصدونه بالمدح فكان وجوده بالمدينة سلسلة من الأعياد والأفراح . وافاء هناك أخوه وأولاده وكان يقصد أن يعود الى مصر من هناك ولعله كان يقصد أن يجعلها مركز دولته الجديدة ، وبأخذ في تنظيمها وإعلاء شأنها ولكن جماعة يقولون انه انما كان يقصد الراحة قليلا ثم يعود الى القتال في آسيا الصغرى وبلاد فارس .. على انه قد بقى في دمشق اطول مما كان عازما عليه في اول الامر . فقد كانت دمشق مهد صباه الاول وكانت أحب البلاد اليه وقد استهواه فيها الصيد فخرج يقضى منه وطره وينعم بلذة الرجولة فيه . ويتفرج في أرض

الظباء فى سهوبها مدة الشتاء وكان يجلس فى أكثر أوقات الفراغ فى وسط أولاده الصغار وأصدقائه المقربين وقد رفعت عنهم الكلفة وسادت المباشطة . وفى أثناء تلك الراحة حدث له كسل فكان لا يكتر من الخروج الى العمل الرسمى بل يؤثر البقاء فى خلوته

ولكنه لما رجع الحجاج خرج الى لقائهم وعند ذلك اجتمع الناس لرؤيته وكان فى لباس بسيط ليس عليه درع ولا وقاء وكان يرغب فى الحج ولا يجد فرصة لذلك وسقط حروبه ومشاغله فكان لذلك تأثيره عظيما عندما رأى المقبلين منه . ثم عاد بعد ذلك الى دمشق سائرا بين البساتين ليتحاشى الجموع الكثيرة المصطفة لرؤيته ولعل ذلك كان برأى الذين حوله اذ خشوا عليه من شر يحدث له فى وسط الجموع وليس عليه ما يقيه

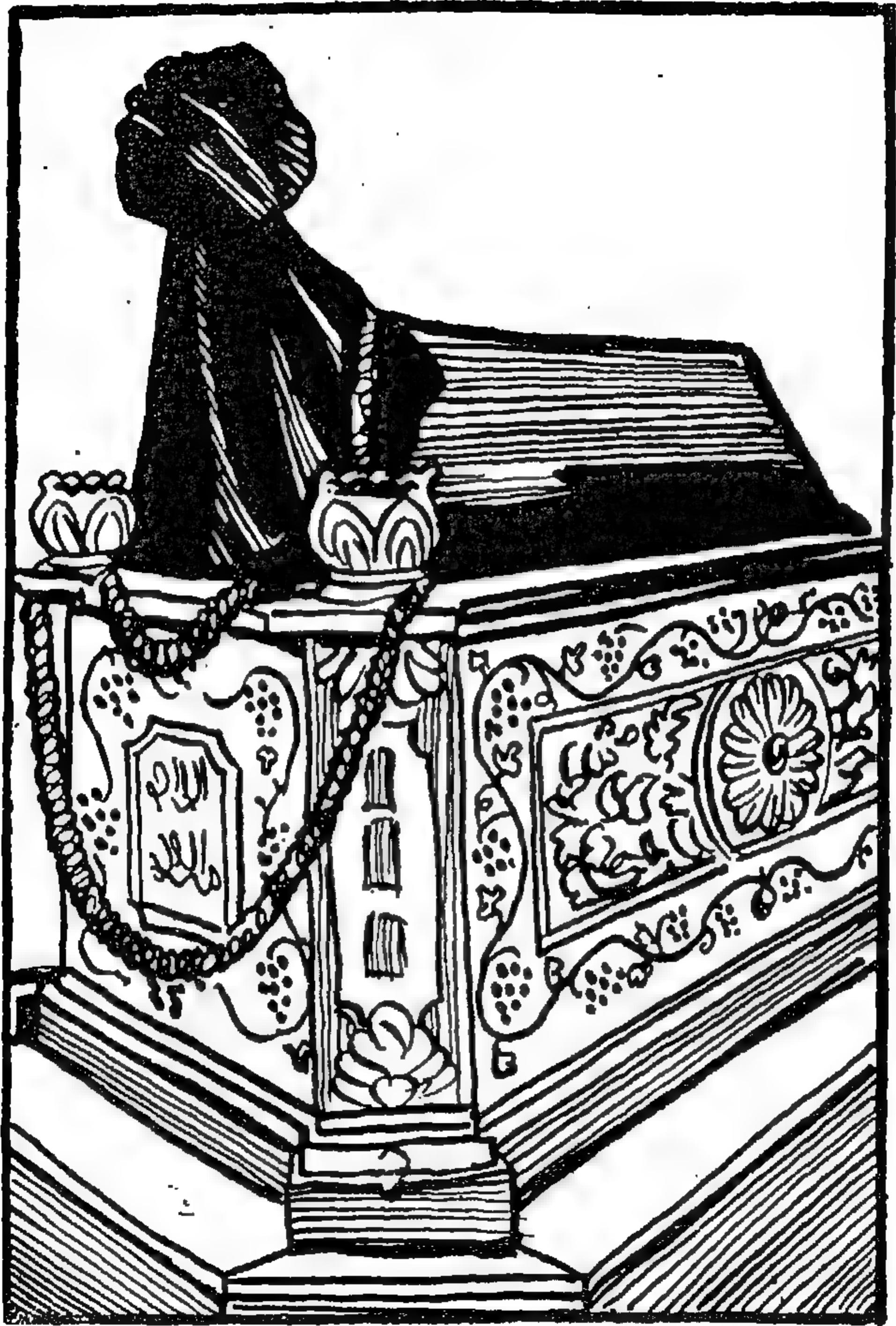
ومرض بعد عودته الى دمشق بحمى صفراوية وانتابه أرق شديد فى الليل ولزم الفراش نحو أحد عشر يوما ومات فى الثانى عشر من مرضه وكان ذلك فى السابع والعشرين من صفر لعام تسع وثمانين وخمسمائة ويوافق ذلك ٤ مارس سنة ١١٩٣ ميلادية

وكان حزن الناس لموته لا يوصف فقد كان العامة يرون فيه السلطان العادل ، والجند يعرفونه القائد المنصور ، والقادة يعرفون فيه الرجل العظيم ، والعلماء يعرفون فيه التقوى والوداعة والإيمان ، والادباء يذكرون ما نالهم من بره وتقديره



لمواهبهم . فكان يوم موته ماتما عاما لا مراعاة فيه ولا مجاملة  
بل كانت موجة الحزن تجتاح البلاد قوية ثائرة . قال أحد كبار  
رجاله وهو القاضي بهاء الدين بن شداد : «وبالله لقد كنت أسمع  
من بعض الناس أنهم يتمنون قداءه بنفوسهم فظننت هذا على  
ضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم فاني علمت من  
نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس ، وقد مات  
صلاح الدين عن نحو سبع وخمسين سنة بعد أن ملك مصر  
نحو أربع وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة  
وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة تزوجت فيما بعد  
بإبن عمها الملك الكامل صاحب مصر وكان أكبر أولاده الذكور  
الملك الأفضل نور الدين على والذي يليه العزيز عثمان والثالث  
الظاهر .





قبر صلاح الدين بدمشق

## شخصية صلاح الدين

ما هي العظمة ؟ وما هو الرجل العظيم ؟ هذان سؤالان يصعب أن يجيب الإنسان عليهما ولكن لا بد من أن يتلمس الإنسان ذلك السر إذا أراد أن يدرك شيئاً عن حقيقة صلاح الدين لقد كان في العالم عظماء كثيرون من رجال السيف ومن رجال الفكر وقد ترك هؤلاء آثاراً في وقتهم وظلت آثارهم إلى ما بعد موتهم

ولكن المرء يدرك أنهم كانوا كباراً في الرجال فإذا ما حاول أن يعرف سر عظمتهم خانه البحث أو ضلله المنطق . حتى لقد قال الكثيرون أن العظمة سر خفي في المرء يرى أثره ولا يعرف كنهه

ويكتفى هؤلاء بأن يفسروها بالفاظ غامضة إذ لا يقدرّون على تبسيطها . ولكننا نخاطر ونحاول بالاستقراء أن نقول في هذا الشأن كلمة نصوغها بأبسط لغة عالمين بوعورة ما نتجشم الجسم في نفسه ، وهو تلك المجموعة من اللحم والعظم وسائر المكونات ، ليس الآلة تطيع وأداة تنفذ ما يريده نظام أعلى وهو الروح وما يلحق به من مجموعة عصبية ولعلنا إذا أردنا معرفة

سر عظمة الفرد لا تقدر أن نجده في الغلاف الخارجى بل لابد أن يكون فى تلك المجموعة العصبية المسيطرة

( ١ ) كان كل عظماء الرجال ذوى أعصاب متينة - تحس فتؤدى احساسها على أتم وجه وأدقه - ثم تحرك الجسم ما شاءت من حركات لا يتطرق اليها الحلل ولا يخرج عن سلطانها عضو من الاعضاء

يتلقى العظماء من الصدمات أعظمها ويحسون بعظم الصدمة بل أن احساسهم بها يكون فى الغالب أكثر من احساس عامة الناس ولكنهم لا يذهلون للصدمة ولو اشتدت - ومثل هذا ما نسمعه من نابليون اذ قال عن نفسه : « كأن الاقدار كانت عالمة بما خبأته لى من صدمات فجعلت لى أعصابا من حديد »

وقد كان لصلاح الدين قسط كبير من هذه الصفة فكان لا يذهل عند صدمة بل يحس بها ويقف ويحكم ويريد وينفذ فى ثبات ودقة . وفى حصار عكا كان يرى العدو يزيد عدده يوما بعد يوم وهو يتخذ لكل طارئ عدته أو يحاول ذلك ولم يجزع ولم تخرع زيمته . وفى موقعة أرسوف وقف وحده فى وسط جمع قليل وقد انهزم جيشه وبقي على ثباته حتى بعث شيثام فى نفسه من قوة الجنان الى رجاله فثبتوا ومنع بذلك كارثة كادت تكون قاضية . وكم حدث أن بلغه نعى أبنائه أو أهله من أعز الناس عليه فيملك نفسه والحزن يحرق قلبه فاذا كان فى وليمة لا يفسدها بل يستمر على احيائها الى أن تنتهى ثم يترك بعد ذلك العنان لنفسه الحساسة فيفيض جواها وحزنها بعد أن

كبحها ما شاء • ولو شئنا أن نضاعف الامثلة الدالة على ذلك لوجدنا في كل يوم من حياته المليئة مثالا بل أمثالا

(ب) هذا وقد نبيح لانفسنا أن نستعير لغة ما وراء الطبيعة فنقول أن القوة العصبية نوع من القوة ولها كما يقولون أشعة ولعل تلك الاشعة تحدث في الخارج أثرا ، ولعل هذا هو سر ما يشعر به الناس من هيبة ممزوجة باحترام وحب إذا هم اقتربوا من العظيم وما ذلك الشعور كما يقول أصحاب ما وراء الطبيعة الا نتيجة تأثير نفس العظيم في نفوس من حوله وذلك شبيه بأثر المنوم في التنويم المغناطيسى • وقد كان عظماء الرجال جميعا متصفين بتلك الصفة فلا نسمع عن عظيم الا ونعرف أن المتقرب إليه كان يشعر بشيء من الشعور القوى نحوه

وقد قال من اقترب من صلاح الدين مثل هذا ومن ذلك ما حكاه عبد اللطيف البغدادي عنه اذ قال « ان المتقرب منه لا يستطيع ألا أن يحس بحب له ممزوج بهيبة » (١)

---

(١) كان امرأه الكبار ومماليكه الصغار اذا راوا عينه واقعة عليهم وعرفوا انه ينظر الى اعمالهم استماتوا في القيام بالواجب وبالقوا في اظهار ما في نفوسهم من شجاعة أو كرم • وما كان جزاؤهم الذي يتوقعونه من وراء كل ذلك الا ان ينالوا من صلاح الدين ابتسامة الرضا اولا وان تلحقهم هذه الاعمال بمرتبه في البطولة - وليس من المبالغة ان نقول ان لصلاح الدين فضلا كبيرا في تلك الشهامة التي ظهرت في المسلمين في ذلك العصر فان للقائد اثرا عظيما في نفوس رجاله فالتاس هم الناس على وجه التقريب في كل وقت فاذا تولى امرهم عظيم تساموا جميعا الى مستوى عظمته فأتوا بالعجيب =

(ج) هذا عن تلك القوة المبهمة التي يمتاز بها الرجل العظيم  
ولكننا نقدر بعد ذلك أن نتكلم كلاما أقل أيها ما - فان من أكبر  
مميزات العظيم نظرتة في الحياة الى نفسه وإلى الناس

ان الطفل ينظر الى العالم نظرة سطحية فيرى كل ما فيها  
معقدا منفصلا عن غيره غير مفهوم فاذا ما كبر أخذ يخرق  
السطح فيعرف طبائع الاشياء فيقل تعقدها في نظره حتى اذا  
ما عرف العالم وخبره أمكنه أن يسند كل شيء الى أصوله وأن  
يرى الامور بسيطة الى حد أكبر مما كان يراها من قبل . وهكذا  
الناس فمنهم الابله الذي يأخذ العالم كما هو ويظن كل شيء  
وحدة قائمة بذاتها فيخيل اليه أن العالم مركب معقد على غير  
نظام ويليه من هو أكثر منه نباهة حتى الذكي الفهم فانه يرى  
العالم أبسط بكثير مما يراه الاقل فهما . فاذا ما بلغ الرجل

---

= واذا تولى امرهم حقير النفس ضاع امرهم وفشلوا وبرزت الى الامام  
أدنى صفات الانسان وأحقرها

فلنذكر ذلك الشاب الصانع الدمشقي الذي توصل الى اختراع وسيلة  
لاحراق آلات العدو بعد أن أعيت المسلمين الحيل في الدفاع عن أنفسهم امامها -  
حتى اذا ما حضر الى صلاح الدين وأظهر له هذا رضاه وعرض عليه الجزاء  
أبى الشاب إباء صادقا وقال انه ما فعل ذلك الا اداء لواجبه وتقربا الى  
الله تعالى ... ولنذكر معلوكه الذي رآه ناظرا اليه والجموع المسيحية الهائلة  
دونه فاندفع الى الموت وصدع صفوف الاعداء صدعا كبيرا بنفسه وحده -  
وعلت بذلك المثل الصالح نفوس المحاربين فاندفعوا الى تقليده والانتقام له

ولنذكر امراء الكبار وليس في الدولة ما يضمن خضوعهم لصلاح الدين من  
قوة اذ كانوا جميعا شبه مستقلين وكان صلاح الدين في شغل من حروبه  
فلم نسمع بعد سنة ١١٧٦ ان واحدا منهم خرج عليه لا بل لم نسمع أن واحدا  
منهم قصر عن أن يكون مثالا عاليا في التضحية والإيثار والاقدام بنفسه في  
مقدمة جنوده . لنذكر كل ذلك ثم لنحكم على عظمة الرجل الذي كان قطب  
تلك الحوادث وجماع أمرها

الى مستوى العظمة أمكنه أن يخترق الحجب السطحية وأن يتغلغل الى الحقائق المجردة من التمويه والاعراض . ولهذا كان عظماء الرجال دائما ممتازين ببساطة التفكير وبساطة الخطط وبساطة النظرة الى الحياة . فينظرون الى أنفسهم وإلى الناس أنهم جميعا خلق متشابهون في كثير ويختلف بعضهم عن بعض بحسب طباعهم لا بحسب الاصطلاح والوضع . وهكذا كان صلاح الدين بسيطا في كل شيء : في نظراته الى الحياة ، في تفكيره ، في سلوكه ، في معاملاته ، في حياته ، في نظراته الى نفسه وإلى الناس .

كان لا يظهر بأنه سيدالدولة الاسلامية بل يقف أمام أمراءه الكبار وأحقر خدمه على السواء بصفته رجلا أمام رجال لا يفرق بين أحد والآخر الا بمقدار حظه من الرجولة ولعله كان واثقا أو كان واثقا بطبعه بغير تفكير ، من أنه أقوى من كل من دونه من الرجال بغير حاجة الى أن يرتكز على مساعدة أبهة الملك وهيبة السلطان . وكان أمراؤه مع ما يعطيهم من الحرية وما كان لهم في عصرهم ذاك من القوة والنفوذ ، كانوا يتضاءلون أمامه ولا يجسر أحد أن يعصى إذا أمره ، لا خوفا من قوته المادية ولكن طاعة لا بد منها لشخصه القوي

فلم يكن يحرك على أمير جنودا بل يكلمه الكلمة الودية ثم يتركه فإذا هو خاضع ولو كان ممن لا يأسرهم الاحسان

والى جانب هذا كان لا يرى فرقا كبيرا بينه وبين أقل خدمه بل يتجاوز ويحكم بطبعه بغير تكلف - فقد رمى أحد الخدم آخر



بخذاء فتجاوز حتى وصل اليه هو فأدار وجهه للناحية الأخرى حتى لا يخرج ذلك الخادم . وكان اذا عرضت عليه القصص يزدحم الناس عليه حتى لقد يطأون طراحته وهو لا يتأثر (١) وطلب في قضية خصما فجلس في مجلس القضاء ولم يتكبر مع أن الحق كان معه . وأراد مملوك مرة أن يوقع منه على ورقة فاعتذر له بالضجر وطلب اليه أن يؤجل ذلك فآلح فقال له ان الدواة غير حاضرة فأشار المملوك الى دواة كانت على مسافة منه فنظر صلاح الدين فوجدتها فمال نحوها ببساطة مرتكزا على يده حتى بلغها بمشقة ثم وقع له بما شاء ولم ير في ذلك شيئا وكان اذا مرض أحد أتباعه أرسل يسأل عنه مرارا ولو كان هو نفسه مريضا . وكان كثير الوداعة في دائرة أسرته يجالس أولاده ويباسطهم ويضاحكهم لاسيما الصغار منهم وكان معروفا دائما بالعطف على كل ضعيف لاسيما الشيوخ والنساء والاطفال (٢) فلا غرابة لمن كان مثل ذلك اذا كانت طاعة الناس

---

(١) ولقد ذكر انه بعد انصرافه عن عكا واخذ الفرنج لها ذهب الى الساحل لكي يدمر حصونه ، وكان هو فيمن يدمر تلك الحصون بنفسه يعمل كواحد من العمال فيحمل الاخشاب فوق كتفه وكذلك كان عند بناء حصون القدس يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الامكنة البعيدة « فيقتدي به العسكر فكان يجمع عنده من العمال في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة ايام »

(٢) ولم يكن هناك فرق في رحمة بين المسلم وغيره ومن الامثلة الكبيرة على هذا قصة الرضيع التي وقعت في اثناء حصار عكا في الايام الاخيرة التي ضاق فيها الحصار على المدينة وضاق صدر صلاح الدين فيها مما يجده المحصورون من البلاء ولكن نفسه ما كانت لتقسو ولو اشتد كربها



له طاعة طبيعية يغتصبها بشخصه القوى ، وتبذل له حيا بالطبع  
بغير تكلف

(د) والرجل العظيم شديد الاحساس دائما ولو ان احساسه  
لا يخرج أعماله عن ارادته وسيطرته - وكل ما يرد في سير  
العظماء يدل على أنهم كانوا من أشد الناس عاطفة • ولو أنهم  
كانوا يملكون ناصية تلك العواطف • وقد كان صلاح الدين  
شديد العاطفة يزيد به الفرح اذا لقي صديقا حتى يبكي، ويزيد  
به الوجد اذا أهتم لأمر حتى لا يأكل ولا ينام بل يقضى كل  
وقته في عمل مستمر ، ويملكه السرور أحيانا فتتهون عنده  
الدنيا وما فيها وتهزه الريحية فيهب كل ماله، وتستهويه ملاهى  
الرجولة فيقضى فى الصيد أياما يشعر بلذة أى لذة فى أن  
يسرح بين المروج ويتردد فى وديان الفلاة الفسيحة ، ثم  
يستثيره الطرب الحلال الى الجمال فيهتز لقول الشاعر اذ يقول  
أمثال :

وزارنى طيف من أهوى على حذر  
من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا  
فكدت أوقظ من حولى به فرحا  
وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا  
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى  
نيل المنى فاستحالت غبطينى أسفا  
فالحق أن الذى لا تهزه العواطف الوثابة يكون أثقل مادة من  
أن ينهض الى الآفاق العالية

(هـ) هذا من جهة الشخصية ولكن الى جانب هذا يمتاز العظيم دائما بقوة العقل والذكاء ، والواقع أن قوة العقل والذكاء ما هي الا نتيجة لازمة للقوة العصبية وقد كان صلاح الدين على أكبر ما بلغه الانسان من قوة العقل . أنه لم يكن عالما بالمعنى الأكبر ولو أنه كان على شيء كثير من الاطلاع في الحديث وشيء من الفقه والادب ولا سيما أنساب العرب ووقائعهم وسيرهم فنعرف مثلا أنه قرأ فيما قرأ كتابا في الفقه من تصنيف الرازي، وكان في الصباح يقرأ بعد الصلاة شيئا من الحديث أو الفقه مع بعض الاشياخ مثل القاضي بهاء الدين بن شداد . ولكن ذكاءه القوي كان يسد ما في علمه من نقص ولهذا كن أكبر مدرسي عصره يحسبون لعلمه حسبا إذا ما أحاطوا به في مجلسه الحافل بكبار أهل العلم في عصره . وكانت وجوه مناقشته وتقدمه تدل على مقدار فهمه . وإذا وصفناه بالفهم فانا نقصد بالطبع أنه كان من أهل السنة المتشددين في مسألة العقيدة وإذا كانت المغالاة في ذلك عيبا فقد كان مغاليا في التشدد ويعرف عنه أنه قتل جماعة ممن كان يشك في صدق إيمانهم . ولعل روح العصر تشفع له إذا كان هناك من يميل الى مؤاخذته في ذلك

ولكن صلاح الدين كان رجل سياسة وحرب ولم يكن برجل العلم ولهذا كان ذكاؤه أظهر ما يكون في أمور الدولة والحروب . فقد كان بعيد النظر يتوقع الامر قبل حدوثه من أول بوادره وكثيرا ما كان رأيه في أمور الدولة خيرا من رأى أجمع عليه

أمرأؤه كلهم • وكان فى اصلاح أمور بلاده يضع يده دائما على مواضع الخلل والضعف وكانت له قدرة عظيمة على القياس بتفاصيل الامور فكان فى وقت واحد يدير الحرب ويرسم الخطط ويرسل الى الاقاليم المختلفة التى فى دولته يرسم خطط الاصلاح الداخلى ويملى ارادته فى الادارة المحلية • ويقوم فى أثناء هذا وذاك على مراقبة كل ما يجرى فى القضاء فى بلاده على يد القضاة ، وما يجرى من الامور فى جيشه الكبير حتى لقد كان كل جندى يظن أن عين صلاح الدين واقعة عليه وكانت حماسة جنوده ناشئة من اعتقادهم أنه يعرف ما يعملون ويجازى الاحسان ويعاقب الاساءة على طريقته فى الجزاء والعقاب

(و) على أن صلاح الدين يمتاز فوق كل هذا بميزة قل أن توجد فى غيره من العظماء فقد ذكر التاريخ كثيرين ممن جمعوا قوة الشخصية وقوة العقل وأحدثوا فى العالم بهذه الميزات آثارا كبرى ولكن قل أن نجد من هؤلاء العظماء من كان فى نفس الوقت عظيما وقديسا • بل ان كثيرا منهم كانت له سقطات فى خلقه - اما من قسوة واما من عدم تردد أمام الوسائل لبلوغ غاياتهم واما من تجاوز حدود الاخلاق الفاضلة - بل ان كثيرين من العظماء يرون الفضائل دون قدرهم ويظنون أنها قيود وضعت للدهماء الذين هم فى مستوى دون مستواهم • ولكن صلاح الدين كان من القلائل الذين جمعوا الخلق الكريم والعقل القوى والشخصية المسيطرة

فكان متدينا منذ أول حياته ولكنه كان مخطئا بعض الخطأ

فى صباه حتى اذا ما دخل ميدان العمل فى اول رجولته ترك  
اللهو وتاب عما حرمة الله . ولكن عقيدته لم يتدخل اليها خلل  
فى وقت من اوقات حياته وكان حريصا على أن تكون عقيدة  
أبنائه قائمة على صخرة فكان يعلمهم بنفسه اول قواعد الدين  
وأما فروض الدين من الصلاة فكان مواظبا عليها ويصلى  
نوافل فوقها كثيرة ولم يترك الصلاة الا عندما اشتد عليه مرض  
الموت وتغيب ذهنه فى الايام الثلاثة الاخيرة . وكان يؤدى  
الزكاة عن ماله القليل ولو أنه لم يكن فى وقت من حياته كثير  
المال لكرمه وكثرة نفقته فى وجوه الخير . وليس أدل على ذلك  
من أنه لم يترك عند وفاته فى خزائنه أكثر من سبعة وأربعين  
درهما وجراما واحدا ذهبيا ولم يخلف ملكا ولا عقارا ولا بستانا  
ولا قرية ولا مزرعة

وأما الصوم فقد كان يشتد عليه ولاسيما فى ميدان الحرب  
وأيام المرض وكان ضعيف الجسم فلهذا كان يتأخر عليه فوائت  
وحاول أن يقضيها بعد أن انتهى من حروبه ولكنه مات وعليه  
بعضها

ولم يستطع الحج مع عزمه عليه وشدة شوقه اليه اذ لم  
يمهله الاجل بعد أن فرغ من الجهاد ليتم تلك الفريضة . ومن  
العجيب أن نعرف أنه فى العام الوحيد الذى خلا من الجهاد فى  
آخر حياته لم يستطع الحج « لخلو اليد عما يليق بأمثاله »

وكان رقيق النفس يهتز اهتزازا شديدا لسماع القرآن  
والحديث وكان كثير الثقة بالله الى درجة قد يعدها البعض خرافة

ولكن الحقيقة أن ثبات نفسه كان يدفعه الى الاطمئنان الى ما يجرى به القضاء واثقا بأنه قد بذل ما فى وسعه وأن الحيلة بعد ذلك فى تصريف القضاء ليست فى يده

ولكن التدين وحده ليس كل ما اتصف به ذلك الرجل الفذ فقد كان خلقه مما يزين أبعد الناس عن الدين فيقربه الى نفوس المتدينين . فكان لا يرى الغاية تبرر الوسيلة ولهذا لم ينزل فى جهاده مع حماسه وشدة ايمانه لقصده الى سلوك سبل تأباها المكارم - فلم يغدر مرة ولم يقل كلمة الا وفى بها ولم يعد حتى يكون قصده الوفاء وكان فى هذا يسوى بين صديقه وعدوه فكان يأبى مع أعدائه ألا أن يكون منازل شريفا - فلم تحفظ عليه هنة ولم يعرف عنه تقص لعهد ولا سعى دنىء فى الخفاء وقد انتصر فى حطين وفتح القدس نصرا عظيما فلم يبطره ذلك ولم يدر رأسه فيدفع به الى انتقام او فسوة بل تجلت شفقتة على الضعيف وبره بالوعد ورحمته بالانسان ولو كان من غير جنسه ودينه بل لو كان من أشد أعدائه . ولم يكن فى نفسه حقد ولا حب انتقام . ويتجلى ذلك من وصيته لابنه اذ قال : « وأحذرك من الدماء والدخول فيها فان الدم لا ينام - وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم . . . ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر الا برضاهم وأما ما بينك وبين الله فانه يغفره بالتوبة اليه فانه كريم » وكان غضبه اذا غضب للمكارم والشرف فقتله لارناط الفادر صاحب الكرك لا يذمه أحد وايقاعه

بشاور الوزير المصرى لا يجد مؤرخ غبارا عليه اذ كان فى كل ذلك غاضبا للشرف والرجولة والعهود . وكان عادلا عدالة لا قيد عليها ولو كان على اهله ونفسه فكان يأخذ من أبناء اخوته ومن أبنائه ومن نفسه اذ قام دليل على ان القانون يحكم عليهم او عليه . على أن كل ما يذكر عن مواقفه امام القضاء يدل على انه كان على الحق . فكان اذ تبرأ امام القانون مما طلبه خصمه تكرم على ذلك الخصم فوهبه ما يسمح به كرمه علما منه ان ذلك الخصم ما اندفع الى ما اندفع اليه من الخصومة الا لحاجة قامت به

وكان كريما يتفق ما فى يده وأكثر مما فى يده فى سبيل الخير والاحسان ولم يترك ميراثا من ذهب أو فضة أو ملك لهذا السبب . ذلك وهو صاحب الدولة العظيمة التى البست فرعون وكسرى ذهبا ، وجعلت لهما أهراما واخوانا . فكان أحيانا يذكر المال قائلا : « يمكن أن يكون فى الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب » ولعله كان يريد بذلك نفسه

وكان بعند كل ذلك حسن العشرة لطيف المعاملة طيب الفكاهة . وكان مجلسه طاهرا من الرجس لا يذكر بين يديه الا خيرا اذ كان لا يحب أن يسمع الا خيرا . ولم يشتم أحدا ولم يعمل صوته فى تأنيب أحد من خدمه الا مراجعة لطيفة ولو اشتد موجب التأنيب ومثل من ذلك ما حدث أيام مرضه وذلك أنه أدخل الحمام فوجد الماء حارا فطلب ماء باردا فأحضره الذى يخدمه فسقط من الماء شيء على الارض فناله منه شيء فتألم له

لضعفه ثم طلب الماء البارد أيضا فأحضر فلما قاربه سقطت  
الطاسة على الأرض فوق الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد  
على أن قال للغلام : «ان كنت تريد قتلى فعرفنى» ثم سكت عنه  
وكان فى حياته الداخلية هادئا محبا محبوبا - يودع أبناءه  
بأن يقبلهم ويمسح على رؤوسهم ، وكان يصحب أولاده وأخوته  
فى الصيد ، وكان يداعب أبناءه الصغار ويعيش فى داخل بيته  
غير متكلف ، وكان يطلب أحيانا أكلا بسيطا كآرز بلبن وأمثاله  
فيأكل مع من حضر من رجاله الاخصاء وأولاده كما يفعل أى  
عامل من أوساط الناس

على مثل هذا كان صلاح الدين فى حياته وقد خلا العالم  
بوفاته من نور أشرق عليه حيناً ولم يبق الا ذكرنا نردده عنه  
لعل فيه أسوة ومنار هدى



# محتويات الكتاب

- ٩ مقدمة الكتاب
- ١٥ الفصل الاول - مباحث تمهيدية لتاريخ صلاح الدين وعصره وعدة الاسلام ونضاله مع الامم - علاقة الاسلام بأمم أوروبا منذ القرن التاسع - صريح القسطنطينية - لماذا لبث أوروبا الدعوة ؟ انتصار الصليبيين
- ٢٥ الفصل الثاني - ظهور صلاح الدين العالم الاسلامي يستجمع قوته للدفاع - الدول الاسلامية بالشام والجزيرة
- ٥٩ الفصل الثالث - العصر الاول من حياة صلاح الدين منشؤه وشبابه - الحملات الى مصر - وزارة صلاح الدين - انقراض الدولة الفاطمية - الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين - ثورة المصريين - وفاة نور الدين - بعد وفاة نور الدين
- ١٠٥ الفصل الرابع - صلاح الدين واتحاد مصر والشام هزيمة الفرنج بالاسكندرية - توحيد مصر والشام - موقف صلاح الدين أمام اسرة نور الدين محمود - فترة السلام - اعمال صلاح الدين بمصر - استئناف الحروب بالشام والجزيرة - آخر النضال مع الموصل



- ١٤١ الفصل الخامس - الجهاد الاعظم  
عرض عام - موقعة حطين
- ١٦١ الفصل السادس - سقوط عكا  
الحملة الصليبية الثالثة - حصار عكا
- ١٨٩ الفصل السابع - صلاح الدين وريكارد ملك الانجليز  
الحرب بعد سقوط عكا - الميدان الاخير
- ٢٠٥ الفصل الثامن - نهاية البطل  
وفاة صلاح الدين - شخصية صلاح الدين

الكتاب القادم

ياولدى

هذا عمك جمال

مذكرات أنور السادات

يصدر في يوليو القادم

## وكلاء مجلات دارالهيكل

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات - مركزها  
الرئيسي بطريق الملك المتفرع من شارع  
بيكو في بيروت صندوق بريد ١٠١٢  
( الاعداد ترسل بالطائرة )

العراق : السيد محمود حلمي - المكتبة العصرية  
ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب. ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - مكتبة المؤيد

السبازيل : Dr. Michel H. Thomé,  
Pateo Do Colegio N° 3  
3º Andar — Sala 9  
SAO PAULO — BRASIL

غانا : Mr. Joseph Hassan,  
The Cine Travel Co,  
P.O.Box 1883,  
ACCRA, GHANA



## هذا الكتاب

كلما داهمت الخطوب الأمة العربية ، قيض الله لها  
بطلا من بنيتها ، فبدد ظلام الفرقة والانقسام ، ووحد  
كلماتها ، وجند صفوفها ، وحررها من الفاصب  
المستبد . ما اشبه اليوم بالأمس : ففي القرن الثاني  
عشر ، مزقت الخلافات والانقسامات الأمة العربية  
وشتتت قواها ، فوقعت فريسة سهلة للصليبيين .  
ثم ظهر البطل صلاح الدين الأيوبي ، فوحد كلمة  
العرب وجمعهم في كتل مترامصة ، ألقى بالعدو  
ودسائسه في البحر . وحرر الأمة العربية وأعاد  
اليها عزتها وكرامتها

وتفخر سلسلة « كتاب الهلال » ، في هذا الوقت  
الذي تكافح فيه شعوب العرب ، ملتفة حول بطل  
جديد من أبنائها للقضاء على الفرقة والانقسام ،  
ودسائس الاستعمار ، في سبيل استعادة مجدها  
وعزتها ، أن تقدم كتاب « صلاح الدين الأيوبي »  
للاستاذ محمد فريد أبو حديد . ففيه سيرة عطرة ،  
مرت بالأمة العربية في ظروف مشابهة . . . ففيه  
عظة وعبرة ، وفيه حافز نبيل يشحذ الهمم والعزائم